
عندما
تنفد
حبات
الرصاص

الإهداء

الى الرجال الذين عندما نتذكرهم او نذكرهم ننحني لهاماتهم لانهم وهبوا لنا الحياة وسبقونا آلاف السنين .

الى روح الشهيد البطل ربحي حداد.

الى ألام التي احتضنتهم ... ورعتهم .. رغم غياب شهادة الميلاد.

الى لبنان ومسار...

عماد عبد العزيز

مقدمة ....

ام سعد موجودة على الدوام ففي كل منعطف ثوري حين يمتشق المناضلون بنادقهم ويلبون نداء الوطن والواجب تجد ام سعد بينهم والى جانبهم تعيش معهم دوما بوجدانية رائعة وقصة حب للأرض والوطن والإنسان . في هذه الرواية يحاول كاتبها نقل أحاسيس وعواطف صادقة نحو نفر من الأبطال ممن أوفوا ما عاهدوا شعبهم وأنفسهم عليه ، رواية تصور صمود مدينة ضربت جذورها عميقا في التاريخ ، يتحدث فيها الحجر والشجر والإنسان، الطفل والشاب والشيخ، عن صمودها في وجه الأعاصير العاتية ، في كل زاوية وركن قصة لبطل وأسطورة مجد، بين جدران المدينة القديمة سكنت الوالدة وعاش معها والى جانبها عشرات الأبطال من مختلف الاتجاهات السياسية ومن أماكن متنوعة في المحافظة والوطن جمعهم حبهم لها للمدينة للوطن للشعب للأهل والأحباء ، كانوا أبنائها الذين لم تلدهم ،أحبتهم حتى العشق، عوضتهم عن حنان الأم والعائلة وقساوة الطبيعة وهمجية وفاشية العدو.

واقعية هذه الرواية والأسلوب القصصي الرائع المعبر عنه بالصور والرموز الناطقة ، ما يجعل منها وثيقة تؤرخ لحب نفر من العمالقة شقوا الصخر وفتحوا فيها دروبا لمواصلة أحباءهم السير نحو ما هو جميل في هذا الوطن ، حاكوا بتلقائية وبدون تكلف نسيج لوحة صمود ، وتضحية تليق بمدينتهم الشامخة ، التقط كاتبنا خيوطها وحبك نسيجها وأعطاه متانة ، وقدم لنا جزءا غنيا من مكتبة ثقافة المقاومة لأجيال اليوم والغد،سلاحا قويا لمواجهة ثقافة الهزيمة والسقوط التي يروج لها اليـــــوم.

ففي واقعية الأحداث التي سبقت بمصداقية عالية ما يجعل من قصة كل بطل من أبطالها شاهدا على أن لا مستحيل أمام الإرادة الواعية المشبعة بالحب والإخلاص والمجردة من أي نوازع فردية أو مصلحة شخصية ، وإذا كان لكل بطل روايته ، فان الوالدة التي تعيش اليوم بيننا بعد ان فقدت عددا غير قليلا من أبنائهما الشاهد الأمين على بطولة ووفاء هؤلاء الأبطال ، فهي تكثف في سجاياها ودورها معنى البطولة ، وتخزن في ثنايا دماغها ملحمة أبطال ماتوا واقفين ولن يركعوا.

الأمين العام للجبهة الشعبية
احمد سعدات

كلمة المؤلف ....

عندما يسقط الرجال ... تستشهد الكلمات وتسقط حروف اللغة في غمرة الحياة وقسوة السنين هناك شعب يبحث في بقاع الأرض عن الحرية ويخرج من بين صفوفه رجال تحتضنهم المعاني الحقيقية لحياة النضال ،فيكون هناك الانتماء الحقيقي في ظل التعميد الثوري والثبات وظل الإيمان العميق بعدالة القضية وسر الانبهار بالحياة حد الشهادة....ومن بين تقاليد الحياة العادية لكل شعوب الأرض وهمومها تنمو لديهم وتتفتح تقاليد وعادات وقيم وهموم جديدة تختلف وتخرج عن المألوف إلى حد يصل إلى الخيال أحيانا.... لكنها تكبر وتنمو....ومن بين كل الأسئلة التي تطرح ....تظل البطولة الثورية ، والبطولة حد التضحية بالحياة أكبر الأسئلة .... لأن البطولة والوعي الحقيقي والإحساس بالعدل بقدسية القضية والتي تشكلت من حجم المعاناة التي عاشها ويعيشها أبناء هذا الشعب يجعل من كل هذه الامور ما يميزها عن باقي الثورات التي قامت ضد الاحتلال في جميع انحاء المعمورة لذلك نقول معذرة لكل الأسماء .... بل المعذرة لكل الشهداء ، لكل الذين كتبوا تاريخهم وتاريخ شعوبهم بالدماء لأنهم لم يموتوا حسب المفهوم القديم للموت والحياة بل ترجلوا عن صهوة الوطن شهداء ليفتحوا الباب أمام الجموع الزاحفة أمام الوطن فرسموا بدمائهم الطريق إلى يافا وحيفا واللد والكرمل في زمن الردة والخنوع والهزيمة فسبقونا آلاف السنين لتقف الكلمات وحروف اللغة عاجزة عند أقدامهم لأنهم لم يتركوا لنا شيئا من اللغة تتناسب مع عظمة الموقف وعظمة الشهادة .

أناس كثيرون يعبرون محطة الحياة نلتقي بهم ونتفاعل معهم وحين يرحلون عنا نحاول عبثا البحث عن الأثر الذي تركوه نادرا جدا ما نلتقي أناسا ذلك اللقاء ولو للحظات فنشعر انهم تركوا في نفوسنا أثرا لا يمكن نسيانه أو تناسيه وخصوصا ممن حملوا آلام وأحزان شعبهم وطرقوا جدران الخزان ليكونوا رأس الحربة أو الكف التي تلطم المخرز وممن يتقدمون الصفوف فالأقوال والأفعال والبطولات التي سطروها بنكرانهم لذاتهم ما زالت تزين جدران وحجارة البلدة القديمة فأضحت سمفونية الوطن فكتبت لهم الحياة وهناك فرق هائل بين من كتب التاريخ بالدم وبين من يبحث عن دواة حبر جفت عند عتبات عروش الأنظمة التي تآكلت مع مرور الزمن ، سقط جيفاريو فلسطين لكنهم استطاعوا أن يحولوا قضية شعبهم من عرائض للدعوة تعرض على هيئة الأمم الإمبريالية وأعمال بطولية إخبارية وشعارات رنانة حولوها إلى مادة حية خالدة والى قلوب وصدور ونبض وحياة إلى أطفال حقيقيين ونساء ورجال .... إلى رجال يحملون على أكتافهم تاريخ هذا الشعب بكل ملامحه الحياتية التي يحياها ويبحث في ثناياه عن الحرية والاستقلال مما جعلهم اخلد من الشعب ذاته .... فليس هناك أخلد من شعب يقاوم إلا رجال اصبحوا الشعلة وأصبحوا الثورة فأضحوا منارة للبطولة والتضحية والعطاء لذلك لا نرثي أحد منهم ولا نبكيهم بل ننحني عند أقدامهم لأنهم ما زالوا بيننا ثورة عارمة .

فمعذرة أيها الرثاء معذرة أيها البكاء فلا مكان بيننا للضعفاء ، للذين فقدوا الانتماء .

عماد عبد العزيز

البداية ....

تشتد أمواج البحر فتتسابق فيما بينها لتصل إلى الشاطئ المنسي منذ قرن من الزمن فلا يفصلها عن حبات المطر المتساقطة سوى بضع خطوات تحددها عقارب الساعة , وإرادة الحياة والسباق نحو المجهول وننتظر غيوم السماء المتلبدة بالماء لتبتل بها ذرات التراب التي بذرها البعض ذهباً كما صوروه لنا , لكن هذه الأرض تلفظها كما يلفظ البحر السمك الميت إلى الشاطئ لأن الأرض العطشى لا تعرف إلا زخات المطر وبذار القمح وحصاد البيدر .... زرعه الأجداد على هذه الأرض منذ القدم بل منذ زمن أبعد بكثير من كنعان ...... فتعصف بنا الذكريات بين الماضي والحاضر لتنقلنا من عالم إلى أخر بل من محطة وردية ارتسمت فيها البسمة على شفاهنا في أزقة وأروقة وحقول قريتنا الجميلة إلى محطة تبدو قريبة أحيانا ليس للناظر أو المبصر فيها أن يرى النور فتحملنا إلى نقطة الصفر أو المربع الأول الذي يقودنا إلى الأهات والأحزان والألم لكننا نرسم فيها بلون أحمر وصية العهد من جديد ..... فيكون القدر هو الفارس الذي يشهر سيفه ثانية بل أكثر من ذلك بكثير وتطبق كل عواصف الرعد على حناجرنا لنتشح بلباس الحزن مرة أخرى ونحمل مفاتيح الغربة في وطننا لنحافظ عليها ثانية خوفا من الضياع وعثرات الزمن .... ويبدأ العد للقوافل من جديد ليعلن عنها أرقاما وشواهد وبوسترات في زمن الردة والانحدار والانحسار ونعود للوراء لعشرات السنين بين مد وجزر وإصراراً وعزيمة . أنهى (يامن) رسالته اخذ يبحث بين الطلاب عن شقيقه علي حتى يوصلها إلى والده في قرية مادما التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن المدينة ، لم يره منذ زمن بعيد بعد أن خرج عبر التلال المحيطة بالمدينة من الجهة الجنوبية للقرية كان مصابا بيده اليمنى حضرت قوات الاحتلال لاعتقاله إلا انه تمكن من الفرار واصبح مطلوبا لها و باتت تشدد الخناق على أفراد العائلة فلا يمر أسبوع دون مداهمة للمنزل للسؤال عنه وكثيرا ما يطلبون من والده أن يسلمهم يامن

وإذا لم يستجب لهم كانوا يهددونه بتصفيته والقضاء عليه ،كان الطلاب
يعدون لمهرجان خطابي لشجب واستنكار الأعمال الهمجية التي ترتكبها
قوات الاحتلال في مخيم جنين ، والصمود الأسطوري الذي سطره أبطال
المخيم للدفاع عن خيمتهم الأخيرة ,تجول يامن في ساحات الجامعة ، واخذ
يتنقل بين الأقسام يمعن النظر هنا وهناك إلى أن وجده تحت الجسر الذي
يصل مبنى كلية الآداب بالمبنى المجاور وقد التف حوله عدد من الطلاب
تقدم منهم ، حياهم... استأذنهم اخذ شقيقه جانبا ثم اخرج الرسالة من جيبه
وطلب منه أن يسلم على والديه وتقبيل أياديهم نيابة عنه وان يدعوان له
بالتوفيق وضع علي الرسالة في جيبه ثم عاد إلى الطلاب ،طلب منهم يامن
التوجه إلى الساحة الحمراء حيث المهرجان الذي سينطلق بعد قليل ، كان
الطلاب يحبون يامن ويحترمونه فقد كان دمثا قليل الكلام يشاركهم همومهم
ويبذل قصارى جهده لحل مشاكلهم والتغلب عليها عدا عن ذلك كان يامن
متفوقا في الدراسة وهو على مشارف إنهاء السنة الرابعة في علم
الصحافة والإعلام وله العديد من المقالات التي كانت تتحدث عن المشاكل
التي تواجه الطلبة منها ما كان ينشر في الصحف المحلية ومنها ما كان
ينشر على مجلات الحائط التي تصدرها الكتل الطلابية وكذلك المقالات
السياسية التي كانت تتحدث عن الأوضاع الراهنة ، لذلك انتخبوه ليكون
سكرتيراً لجبهة العمل ، توجه الطلاب إلى حيث المهرجان كان الحفل قد
بدأ وقف ممثلو الكتل الطلابية يتحدثون عن المخيم وعن الجرائم التي
يتعرض لها أبناؤنا هناك ، وعن الصمود الأسطوري الذي سطره أبناء
المخيم في وجه الآلة العسكرية الصهيونية ، وقف يامن بعد أن أمسك
السماعة بيده المصابة وقال :هذه ليست المرة الأولى التي نتعرض فيها
للحصار وليست المرة الأولى التي تقصفنا فيها الدبابات فمنذ قرن من
الزمن ونحن نتعرض للقتل والحصار والتشريد والتدمير، والتهجير،فدير
ياسين وكفر قاسم وقبية ومجازر أيلول وتل الزعتر وحصار بيروت دليل
على ذلك ،إلا أننا نخرج من كل أزمة نمر بها اكثر صلابة واكثر قوة بل
تزيدنا إصرارا وعزيمة على مواصلة المسيرة التي عمدناها بالدم وسقط
خلالها آلاف الشهداء ،وما نتعرض له اليوم من مجازر ومن صور البطولة

التي يرسمها أبطال المخيم تؤكد على فهمنا الحقيقي لطبيعة الصراع مع هذا السرطان الذي يهدف إلى القضاء على تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا على أرضنا الفلسطينية الحبيبة ،لقد بات في حكم المؤكد أن هذا العدو لا يعرف إلا لغة الرصاص والدم ، ولغة المقاومة والانتفاضة ، فعهداً نقطعه أمامكم أن نشعل الأرض نارا تحت أقدام هذا المحتل الغاصب ، وعهداً لدماء الشهداء أن نكمل مسيرتهم مسيرة الشهادة والاستشهاد والتي رسموا بدمائهم معالم خارطة الطريق إلى الوطن السليب،كانت الكلمات تنساب من فمه كشلال لا يفتر أبداً ، الهبت جموع الطلبة التي أخذت تهتف (بالروح بالدم نفديك يا جنين)أنهى يامن كلمته كان فادي وجبريل يقفان بجانب المنصة ينتظرانه بفارغ الصبر أشار إليه جبريل بيده نزل عن المنصة همس في أذنه اخبره أن (الشيخ) يريدهم في الحال وينتظرهم لأمر هام في احد رياض الأطفال في المدينة خرج ثلاثتهم من الجامعة نحو موقف السيارات استقلوا إحداها وتوجهوا صوب مركز المدينة كان يامن خلال الطريق مطرقا رأسه يفكر بالشيخ والأمر الذي دعاهم من اجله ، فلولا الأهمية وضرورة الأمر لما استدعاهم ،نزلوا من السيارة وساروا خلال إحدى البوابات التي تؤدي الى روضة الأطفال ، كانت الشوارع والأزقة تعج بالناس ،الشيوخ الأطفال الرجال النساء كل منهم يبحث عن شيء قد يفتقده في الأيام القليلة القادمة ، فالاحتلال يعزف على وتر شبح الموت للمدينة ،والهجوم بات وشيكا المقاهي ملاى وطوابير من البشر تصطف أمام محلات البقالة والتي بدا مخزونها من المواد الغذائية بالنفاد وأخرى أمام المخابز , وآخرون يلتفون حول رجل كان يحمل صحيفة يقلب صفحاتها علهم يجدون فيها خبرا يبعد عنهم شر الاحتلال ,تقدم منهم رجل طاعن في السن يسير على عكازتين ثم سال متهكما: (الله يخليك شو فلي هالجيوش العربية وين صارت) رد عليه طفل كان يسترق السمع إليهم (أنا سمعت انه الأنظمة العربية فقدت الحواس الخمسة ،لا بسمعوا ولا بيحسوا ولا بيشوفوا ولا بيذوقوا) ضحك الجمع لهذه النكتة التي أطلقها هذا الطفل البريء؛ كان عدد من الشيوخ يستمعون لشاب في مقتبل العمر كان يعبر فيه عن دهشته لعدد الدبابات المتواجدة بالقرب من معسكر حواره فيما

كانت الشائعات تسري في المدينة بسرعة فائقة فهناك من ادعى أن الاحتلال حدد ساعة الصفر للاجتياح وهناك من قال أن الاحتلال سيمنع دخول الوقود والغاز والطحين الى المدينة وان قوات الاحتلال تمنع الدخول أو الخروج منها واليها والإعلان عنها منطقة عسكرية مغلقة مما جعل المواطنون يتهافتون على محطات الوقود وتوزيع الغاز وخصوصا أن فصل الشتاء كان في اوجه في تلك الأيام سار ثلاثتهم عبر زقاق يؤدي الى حوش يدعى (حوش عبد الهادي)طرق جبريل الباب وانتظروا قليلا ، وبعد لحظات سمعوا وقع خطوات تقترب من الباب ظن ثلاثتهم أن ربحي هو القادم ، ومن خلال شباك صغير في أعلى الباب اطل كميل برأسه ليتأكد من هوية الطارق ، وما أن رآهم فتح لهم الباب، كميل شاب في الثلاثين من عمره قصير القامة اصلع الرأس في وجهه ويديه آثار حروق أصيب بها حين حاول بعض الاخوة تحضير عبوة كانوا قد حصلوا عليها من أحد تجار الأسلحة والذي اتضح فيما بعد أنها كانت مرسلة إليهم من قبل المخابرات بعد فرار ذلك التاجر الى داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وأدى انفجار تلك العبوة الى استشهاد أحد قادة كتائب شهداء الأقصى (الشهيد عزام مزهر) وفقد أحد المتواجدين في الموقع بصره ، ومن شدة الانفجار فقد كميل حاسة السمع ، سلموا عليه ثم ساروا باتجاه احدى الغرف الجانبية للروضة ، دخلوا الغرفة كان ربحي جالسا والى جواره وائل ومحمود ومنذر وعلام وأبو وطن وقف ربحي عندما رآهم يدخلون الغرفة وكذلك باقي الحاضرين سلموا عليهم ورحبوا بهم كثيرا كان جو الغرفة لا يختلف عن الأجواء التي كانت تسود المدينة في تلك الأثناء ... جلس ربحي وراء طاولة من الخشب عليها غطاء ابيض وفي زاوية الغرفة خزانة تحتوي بعض الكتب ... وعدد من الكراسي الخشبية القديمة موزعة في أرجاء الغرفة ، جلس ثلاثتهم في الجهة المقابلة للطاولة ... اخذ يامن يتفحص الغرفة و التساؤلات تدور في رأسه تبحث عن أجوبة تفسر سر هذا اللقاء ، وخصوصا أن الدعوة موجهة من ربحي وبوجود مسؤول الكتائب كميل وباقي الرفاق ، كان ربحي صامتا تعلو وجهه علامات الصرامة والهدوء التي اكتسبها من تلك السنين التي

بها فربحي ولد من رحم الأرض رجلا ... فعندما نذكر جيفارا بعنفوانه بإقدامه بهدوئه وصرامته بخياره الذاتي للنضال بصموده في وجه الظلم ، وتقرا في سيرته الذاتية أثناء الحصار في جبال السيرا مايسترا بعد أن هاجموا ورفاقه معسكرا لقوات باتستا وقتلوا وجرحوا من فيه واستولوا على كمية كبيرة من البنادق كيف كان قرار الحسم ما بين حقيبة الإسعاف والشهادة او البندقية كان الخيار في لحظات دون تردد ألقى بالحقيبة والشهادة جانبا واختار البندقية ،وتصيبك الدهشة عندما تقرأ حين رفض جيفارا كل المناصب التي عرضت عليه بعد تحرير كوبا قال لرفيقه فيدل كاسترو يومها:(ليس من اجل هذا حاربت أين ما يكون الظلم يكون موطني) , وعندما تذكر يوليوس فوتشيك بصموده في أقبية التحقيق رغم كل الأساليب الفاشية التي استخدموها أثناء جولات الاستجواب لانتزاع اعتراف منه على رفاقه في الحزب ومحاولاتهم الفاشلة في إطلاق الرصاص الفارغ عليه لإرهابه والنيل من عزيمته إلا انه اثر الشهادة في سبيل الحفاظ على رفاقه واستمرارية النضال ضد قوى القهر والظلام ،وحين تستعرض مواقف (هوشي منه)في الحرب الفيتنامية وادارته للصراع تستشعر مواقف الرجولة والبطولة من ذلك القائد العظيم الذي وقف شامخا فوق البارجة الحربية (شارل ديغول) والتي كانت اكبر بارجة تجوب البحار والمحيطات في ذلك الوقت عندما تقدم منه وزير الحرب الفرنسي وقال :ما رأيك في هذه السفينة ؟ نظر هوشي اليها كان سطحها مليء بالمدافع والطائرات الحربية ، كان يهدف الى إثارة الرهبة والخوف في نفس ذلك القائد العظيم ، رد عليه هوشي منه قائلا (إنها لا تستطيع إن تبحر في أنهارنا الضيقة). لذلك عندما يتذكر رفاق واخوة ربحي وكل من عايشه يتذكرون الصلابة والصرامة والهدوء والعنفوان الثوري الذي كان يميزه عن باقي العظماء في هذه الأرض حيث اجتمعت فيه كل الصفات التي تميز بها كل من جيفارا وفوتشيك وهوشي منه ، ترك دراسته في الجامعات المصرية ليحمل البندقية في حرب حزيران عام ٦٧ ليسقط اسيرا في أيدي قوات العدو ويحكم عليه بالسجن المؤبد ليقود الحركة الأسيرة في سجون الاحتلال ويبني مدرسة حزبية تخرج منها آلاف الثوريين

والمناضلين الذين حملوا مشاعل الثورة وساروا بها للدفاع عن الأرض
الفلسطينية ، كان يقود معارك الأمعاء الخاوية لتحقيق ابسط الحقوق
للمعتقلين وحين يلتقي إدارة السجون ويهددونه بالموت أحيانا والحبس
الانفرادي وسحب بعض الإنجازات التي حققوها في السابق كان يقول لهم:
لا يستطيع تهديدكم اختراق إرادتنا الصلبة .ويذكر كل من التقى ربحي
حداد صلابته في إدارة دفة المفاوضات مع إدارة السجون أثناء عملية
التبادل بين الاحتلال واحمد جبريل كيف كانت تمرر الأسماء المنوي
الإفراج عنها عليه وعلى بعض قادة الفصائل الأخرى فيقف ربحي حداد
عند العديد من الأسماء المشبوهة والتي كانت تتعامل مع الاحتلال ويصر
على شطبها مهددا بوقف المفاوضات ، ويخرج ربحي من السجن وما هي
إلا اشهر معدودة حتى تنطلق الانتفاضة الأولى ليكون ربحي في مقدمتها
ويعود الى السجن ثانية ويتعرض الى ابشع صور التعذيب في زنازين
الاحتلال هددوه بالموت ...بالنفي الى خارج البلاد إلا أن الرياح العاتية لا
تستطيع أن تحرك قيد انملة من سفح ذلك الجبل الذي قد صخره من حجارة
جرزيم وعيبال والكرمل ، ليخرج ربحي من المعتقل ثانية بعد أن امضى
اربع سنوات في الاعتقال الإداري اكثر قوة وصلابة وعزيمة وإصرار.كان
مولعا بقراءة الأدب السوفياتي والفلسفة والتاريخ لديه قدرة كبيرة على
التحليل وقراءة الواقع وإدارة الصراع ففي العام ٧٣ عندما بدأت حرب
اكتوبر أخذت إدارة السجون تفرض إجراءات تعسفية على المعتقلين
وفرض أجواء الحرب عليهم فعلى سبيل المثال كان لا يسمح للمعتقلين أن
يرفعوا رؤوسهم أثناء الفورة وأيديهم موضوعة خلف ظهورهم وأثناء العدد
يجلسون على ركبهم ورؤوسهم للأسفل منعت عنهم الصحف ونشرات
الأخبار وزيارة الأهالي ، فرضت تعتيما أخباريا عليهم الى أن وصلت
السجون نشرة تحليلية على شكل كبسولة عن الحرب كان قد صاغ
خطوطها ربحي حداد ورفيقه يعقوب دواني وضحوا فيها ان هذه الحرب
حرب تكتيكية بعيدة كل البعد عن الحقيقة تهدف الى خلق واقع يرسم
خارطة المنطقة من جديد وتؤدي الى هرولة الأنظمة العربية في أحضان
أمريكا والدخول في ملهاة الحلول الواهية للصراع العربي الإسرائيلي بل

ستؤدي الى إنهاء الصراع برمته على حساب القضية الفلسطينية ، هذا التحليل أدى الى خوض المعتقلين إضرابا شمل جميع المعتقلات والسجون وبالتالي رفض جميع الإجراءات التي اتخذتها إدارات السجون بحق المعتقلين وتحقيق إنجازات كبيرة على هذا الصعيد ، وكم كانت دهشة الاحتلال عندما علم في ما بعد أن تحليل مسرحية الحرب قد خرجت من السجون وان الذي يقف وراءها ربحي ويعقوب .

رحب ربحي بالرفاق خيم عليهم الصمت كان كميل منهمكا في إعداد إبريقا من الشاي وبعد أن انتهى منه وزع فناجين الشاي عليهم اخذ ربحي يشرح للرفاق أبعاد المرحلة القادمة قائلا : اسمعوا يا رفاق يبدو أن الاحتلال عازما على اقتحام المدينة وقد يكون الهجوم خلال أيام أو ساعات فالاحتلال يخطط الى إعادة احتلال المدن الفلسطينية من جديد مدينة مدينة لضرب المقاومة وتصفية الانتفاضة من اجل فرض سياسة الأمر الواقع والدليل على ذلك ما حصل في مدينة قلقيلية وطولكرم وجنين ثم مدينة رام الله وبيت لحم وبيت ساحور ويبدو أن الاحتلال يؤخر الهجوم على نابلس لتكون آخر المدن وذلك لان المدينة اكبر المدن الفلسطينية والبلدة القديمة تختلف عنها بطبيعتها الجغرافية وكثافتها السكانية وتماسك بنيانها وأزقتها ودهاليزها وأنفاقها ومخابئها عدا عن عدد المقاتلين والمناضلين المتواجدة فيها لذلك يا رفاق يجب أن ندافع عن هذه المدينة وان نكون جزءا من هذه المعركة ثم استعرض تاريخ الجبهة والبطولات التي حققتها عبر مسيرتها النضالية وحالة التراجع التي أصابتها بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو وليست الجبهة الشعبية بل كافة الفصائل الفلسطينية بما فيها حركة فتح ، إلا أن الصراع مع الاحتلال ما زال قائما وان صراعنا معه هو صراع الكينونة فاما (أن نكون أو لا نكون) لكن البقاء لصاحب الحق ، ثم اخذ يحدثهم عن الثورات التي خاضتها شعوب العالم ضد قوى الاستعمار على هذه الأرض كان الرفاق يستمعون إليه باهتمام حريصين على عدم مقاطعته ، حدثهم عن الصمود الأسطوري لمدينة(لينين غراد)وكيف أنها استطاعت الصمود أربع سنوات في وجه النازية وانتصارها في الحرب بفضل المقاومة العنيفة

التي سطرتها وحدة وتلاحم الشعب الروسي والجيش ، شرح لهم عن الثورة الفيتنامية وانتصارها في الحرب على القوات الأمريكية الغازية وحجم الخسائر التي ألحقتها فيتنام بالجيش الأمريكي والتي ما زالت عقدة تلك الخسائر تلاحق أمريكا الى هذا اليوم ، والثورة الكوبية ضد نظام باتستا المدعوم من القوى الإمبريالية في ذلك الوقت و التي قادها جيفارا وكاسترو والشعب الكوبي ،وتأثير تلك الانتصارات على جميع الثورات والمناضلين ضد قوى الظلم في تلك الحقبة الزمنية والتي كانت تهدف للسيطرة على مقدرات وخيرات تلك الشعوب ، كان ربحي يهدف من خلال هذا الاجتماع شحذ الهمم والإرادة في الرفاق ليكونوا في المقدمة للدفاع عن نابلس كان يرى في جموع المقاتلين من كافة الفصائل والأجهزة الأمنية التي كانت تعمل وتحضر للدفاع عن مدينتهم بإمكانياتهم البسيطة فرصة كبيرة في الانتقام للدماء التي سالت عبر سني الاحتلال ، وان هذه المدينة ستكون (لينين غراد)في هذا الزمن ،و هزيمة أخرى ستلحقها هذه القوات بآخر معقل للاستعمار على هذه الأرض ، وخصوصا تلك الخسائر الفادحة التي ألحقها عدد من المقاتلين في صفوف قوات الاحتلال في مخيم جنين ، لذلك قرر أن يكون في مقدمة الرفاق لخوض هذه المعركة ، كانت كلماته تعبر عن الإرادة الصلبة والعزيمة والإصرار والانتماء ، مم جعل الرفاق اكثر صلابة وعزيمة وشوقا لسماع المزيد من هذا القائد العظيم فقد أدخلتهم تلك الكلمات في جو المعركة ، اخذوا يتخيلون الدبابات والطائرات والآليات العسكرية وهي تقترب من المدينة والية التنسيق بين المقاتلين وكيفية الدفاع عن المدينة وحجم الخسائر التي ستقع في صفوف الاحتلال ، في هذه الأثناء قرر كميل الدخول في أجواء هذا العظيم الذي ود أن يكون التقاه منذ زمن بعيد وتخرج من بين يديه وخصوصا بعد أن قرأ من خلال حديثه إصراره في الدفاع عن المدينة ، رفع يده مستأذنا كتلميذ في إحدى الغرف الصفية يستأذن أستاذه بالسؤال أو الإجابة .

- تفضل يا رفيق ... قال أبو الرامز ...

- شكرا الك يا رفيق على هذا اللقاء وعلى هذه العزيمة والإرادة الصلبة التي تتحلى بها لكن يا رفيق احنا بحاجة الك والجبهة بحاجة الك في هذه الأيام ، احنا شباب وقادرين اندافع عن البلد ونرفع راسك وراسنا،بس عمرك بسمحش الك انك تكون معانا ، احنا ابنترجاك ما تدخل البلد القديمة لانه باعتقادي المعركة طويلة وممكن إنها اتطول أيام واشهر، ما حدا بضمن الظروف اللي رايحين انمر فيها .شكر أبو الرامز كميل على هذا الاهتمام وعلى هذه النصيحة وشعر بسعادة عبر عنها بابتسامة وبريق في عينيه السوداويتين و قال :

- اسمعوا يا رفاق في الحرب التي خاضتها الشعوب من اجل نيل حريتها وكرامتها ما في فرق بين كبير وصغير وشاب وشيخ ورجل وامرأة الكل له دور في المعركة ، بدي أعطيكم أكثر من مثال ،الثورة الفيتنامية كان (هوشي منه) قد تجاوزت سني عمره عدد شعرات لحيته التي تدلت حتى وصلت تخوم صدره حين كان يقود الثورة هناك كثير الحركة و التجوال يتنقل بين المدن والقرى والجبال يلتقي المقاتلين يشارك الجنرال (جياب) في وضع خطط المقاومة كان قد تجاوز الستين من عمره وفي أحد الأيام كان يجلس بين المقاتلين يستمع لمحاضرة يلقيها الجنرال جياب عن حرب العصابات ومعظم الحاضرين من الثوار الشباب عندما توجه أحد الحاضرين بسؤال يستفسر فيه عن ذلك الشيخ الطاعن في السن والذي قطع مسافة طويلة ليكون بينهم وكان السؤال موجها الى الجنرال جياب بعد أن أثار فضول حب الاستطلاع لدى ذلك الشاب ، اجال الجنرال جياب نظره بينه وبين ذلك الشيخ الذي كان يفترش الأرض ثم دقق النظر في وجه السائل ابتسم و أجاب : غدا سيعرف العالم من هو هذا الشيخ ... أثار هذا الجواب دهشة الحاضرين الذين لم يعرفوا (هوشي منه) من قبل ، ليفخر كل واحد منهم انه التقى أو شاهد هذا القائد العظيم بعد انتصار الثورة ،ومثال آخر يا رفاق كم كان عمر الشيخ عمر المختار عندما اعدمه الإيطاليون ، وعبد القادر الجزائري عندما نفته فرنسا الى دمشق ؟ والشيخ عز الدين القسام عندما استشهد في المعركة ... كان أبو الرامز يتحدث ويدافع عن قراره كمحام اعد كل قوانين الكون للدفاع عن وجهة نظره

لإقناع الرفاق بخوض المعركة مهما تكن النتيجة ، كان الرفاق يستمعون إليه ففي كل حرف وكلمة وجملة كان ربحي يكبر في قلوبهم ويزداد إعجابهم ومحبتهم له أيقن كميل وباقي الرفاق أن ربحي سيكون معهم في المعركة ولا يمكن لقوة في الأرض أن تثنيه عن قراره وتغيير وجهة نظره ، فقرار المشاركة والدفاع عن نابلس اتخذه ربحي مسبقا لذلك كانت الدعوة لباقي الرفاق في الكتائب لهذا اللقاء وإبلاغهم بالقرار .

بعد أيام قليلة من اجتماع ربحي بقادة كتائب أبو علي مصطفى في الثامن والعشرين من آذار بدا شبح الحرب يخيم على المدينة الشباب والأطفال ينقلون الأتربة والصخور لسد مداخل المدينة وعناصر المقاومة تزرع العبوات الناسفة في جميع الأماكن المتوقعة لدخول العدو كان ربحي قد التقى العقيد أبو فادي حميدان والذي لم يكن التقاه من قبل وكم كانت سعادة أبو فادي بربحي لم يكن ربحي يحمل سوى مسدس فأهداه أبو فادي بندقية من طراز (كلاشنكوف) كانت الأخبار تتوالى عن حشودات عسكرية لقوات الاحتلال عند معسكر حوارة القريب من نابلس ومعسكر دير شرف من الجهة الغربية وحشودات أخرى على الطريق الالتفافي بالقرب من قرية صرة وطائرات الاستطلاع تجوب سماء المدينة يكاد صوتها يصم الآذان ، في هذه الأثناء كان ربحي وأبو فادي يتنقلان ومعهم عدد من المقاتلين من بينهم يامن وكميل وفادي وجبريل وأبو وطن في أزقة وشوارع وحارات البلدة القديمة التقوا بالمقاتلين الذين قدموا للدفاع عن المدينة كانوا بالمئات سواء من الأجهزة الأمنية أو من المطاردين من المدينة أو من باقي المدن الأخرى الذين وجدوا في البلدة القديمة ملاذا آمنا لهم ، كانت علامات الإصرار للدفاع عن المدينة بادية على وجوههم الكل منهم ينتظر المعركة ، وأثناء تجوالهم في حارة الياسمينة التقوا بعدد من المقاومين كان من بينهم مؤيد الجميل الذي كان يطلق عليه أهل المدينة لقب (السنفور) شاب في أو آخر العشرين من عمره من مؤسسي كتائب الأقصى ومن المطلوبين لقوات الاحتلال مليء بالحيوية والنشاط والجرأة وهو شقيق الشهيد محمود أحد القادة الميدانين في الانتفاضة الأولى ، كان مؤيد منهمكا في زرع العبوات الناسفة وتمديد

وتمديد الأسلاك وباقي المجموعة تقوم بتعبئة الأكياس بالأتربة والرمل لإقامة المتاريس ، وفي لقاء عابر تخلله بعض النكات التي كان يطلقها السنفور بين الحين والآخر قال مؤيد :هذه معركتنا الأخيرة ولن نسمح لهم اقتحام البلدة القديمة إلا على جثثنا ...سنقاوم حتى الموت وان شاء الله سنهزمهم ...أبدى أبو فادي وربحي إعجابهم بهذه الشجاعة التي تحلى بها السنفور ثم قدم أبو فادي لهم بعض التوجيهات في حرب الشوارع التي سيخوضونها بعد قليل ، وبعد ذلك توجهوا لتفقد المستشفيات الميدانية التي أقيمت في عدد من مساجد البلدة القديمة ، والحواجز الترابية ، كانت تلك اللحظات والمشاهد التي مروا بها تشير الى أن أمد المعركة سيطول وان المقاومة ستكون شرسة للدفاع عن المدينة ،فيما كان السكان منهمكين في تخزين المياه والمواد الغذائية التي بدأت تنفد من الأسواق.

الساعة السابعة مساء مئات الدبابات والآليات العسكري تقترب من المدينة من جميع الطرق المؤدية إليها وطائرات الأباتشي تحلق في سمائها تشير الى قرب المعركة الأخبار بدأت تصل عن توقف هذه القوات عند حواجز الأمن الوطني ، وبدأت الاستعدادات للدفاع عن المدينة تمركز عدد كبير من المقاومين بالقرب من البوابات والمداخل المؤدية الى البلدة القديمة ، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف بدأ الهجوم قامت قوات الاحتلال بنسف جميع الحواجز التابعة للأمن الوطني والمقامة على حدود المدينة والتي تفصل المنطقة (ا) والتي كانت تعرف بمناطق محررة خاضعة للسلطة الفلسطينية عن المنطقة (ب) والتي لا تخضع للسلطة حسب الاتفاقيات الموقعة والتي نصت عليها اتفاقيات أوسلو ،ثم قامت هذه القوات بالتقدم نحو المدينة من جميع المحاور من منطة وادي التفاح وبيت وزن غربا وشارع القدس والباذان شرقا ودخلت عدد من الآليات من منطقة جبل الطور ، أخذت هذه القوات تطلق نيرانها في جميع الاتجاهات وطائرات الاباتشي تقصف بصواريخها ونيرانها كل ما هو متحرك على الأرض وارتفعت أعمدة الدخان من الطوابق والعمارات والأبنية ، ثم بدأت باحتلال العمارات والبنايات المرتفعة المطلة على البلدة القديمة في البداية لم تلق هذه القوات مقاومة إلا في بعض الجيوب المتواجدة في

أطراف المدينة والمخيمات في اليوم الأول استشهد امجد القاطوني وسلام الجعبور عند مخيم العين ، وفي اليوم التالي وصلت القوات الصهيونية الى مشارف البلدة القديمة فقامت باحتلال البنايات والعمارات العالية في منطقة راس العين والجبل الشمالي وعملت على تقسيم المدينة الى عدة مناطق ،و كانت تجبر الأهالي على التجمع في شقة واحدة عشرات البشر ينامون في عدد من الغرف ،ثم قامت الطائرات بضرب المولدات الكهربائية التي تزود المدينة بالكهرباء وآبار المياه التي تمدها بالماء وكانت تطلق نيرانها باتجاه صهاريج وخزانات المياه المتواجدة على ظهر الأسطحة ، وفي المساء بدا الهجوم فوجئ الاحتلال بالسواتر الترابية التي كانت تسد كل المداخل والطرقات المؤدية الى داخل البلدة القديمة ، حاول جنود الاحتلال مرارا اقتحام البوابات تحت غطاء عنيف من صواريخ الاباتشي وقذائف المدفعية المتمركزة على أطراف البلدة القديمة والتي كانت تصب جام حقدها في جميع الاتجاهات على السكان دون تمييز إلا ان محاولاتهم باءت بالفشل فقد أحدثت الانفجارات العنيفة للعبوات الناسفة التي زرعها المقاومون في جميع الأماكن المحتملة لدخول القوات الغازية الرعب في قلوب جنود الاحتلال مما جعلهم يفكرون في سحب قوات المشاة التي كانت هدفا سهلا في البداية للمقاومة والإبقاء على هذه القوات داخل العربات المصفحة والتي لا يخترقها الرصاص ، كثف الاحتلال من هجومه على البلدة القديمة واستعان بالعديد من طائراته الهجومية لقصف المدينة وأيضا المدفعيات المتمركزة على جبلي عيبال وجرزيم والتي أخذت تقصف التجمعات السكانية بقذائف المورتر عشرات القتلى والجرحى في الشوارع والأزقة ، كانت طواقم الإغاثة الطبية تنقلهم الى المستشفيات الميدانية ، فيما كانت قوات كبيرة من جنود الاحتلال تجوب أطراف المدينة تقوم بحملة اعتقالات طالت العديد من الشباب والشيوخ كانت تجمعهم في البنايات والشقق التي احتلوها وتمركزوا فيها ومن ثم تنقلهم الى مراكز التحقيق في معسكر حوارة وكفر قدوم وسجن عوفر الذي افتتح من اجل هذه الحملة على المدن والقرى الفلسطينية ، وفي اليوم الخامس من الهجوم عمدت قوات الاحتلال الى خطة جديدة

لاختراق البلدة ، أخذت الجرافات المصفحة تقوم بهدم المنازل والمحلات المحاذية للبوابات المؤدية للمدينة لتقوم قوات المشاة بفتح أنفاق داخل جدران المنازل المتلاصقة للوصول الى الأحياء الداخلية ، فيما كانت قوات كبيرة تحاول الدخول من منطقة راس العين عبر الدرج المؤدي لحارة الياسمينة إلا أن المجموعة التي كان يقودها السنفور أبدت مقاومة عنيفة حالت دون ذلك ، مما جعل قوات الاحتلال تقتحم تلك المنطقة من الجهة القريبة للحارة حيث قامت دبابات الميركافا والتي يصل وزنها الى اكثر من ستين طنا من الحديد المصفح بتدمير البنايات القديمة الملاصقة لحارة القرويون فوق السكان لتقتل عائلة الشعبي بالكامل من الأطفال والنساء والشيوخ ، تحت وابل من قصف الطائرات والمدفعية ونيران القناصة ، في هذه الأثناء كانت قوة كبيرة تحاول اختراق المدينة من المنطقة الشرقية عبر السوق المؤدي للجامع الكبير وحارة الشيخ مسلم وشارع حطين إلا أنها كانت تلقى مقاومة عنيفة حيث كان يتمركز احمد الطبوق وعشرات المقاومين من أبناء المدينة والأجهزة الأمنية إلا أن قلة الامكانيات والعتاد في هذه المعركة الغير متكافئة ونقص المياه والمواد الغذائية حالت دون ان يطول أمد المعركة ففي اليوم السادس استشهد السنفور ومجدي الزغلول والنقيب إبراهيم عفانة ابن قرية تل التي تبعد حوالي ستة كيلو مترات عن أطراف المدينة والذي اثر الدفاع والمشاركة في هذه المعركة ، كان أبو فادي حميدان وربحي حداد وباقي المقاتلين يتنقلون بين الأزقة والحارات يتفقدون المقاتلين إلا أن سقوط العديد من حارات المدينة وتمركز القناصة المزودين بأشعة الليزر جعلت حركة التنقل اكثر صعوبة وكثيرا ما كان يستشهد أو يصاب أحد المقاومين على بعد أمتار من رفاقه فلا يستطيعون نقله أو الاقتراب منه وعندما استشهد احمد الطبوق وكان ينزف حاول ناصر أبو السعود الذي كان يبعد عنه ثلاثة أمتار تقريبا إنقاذه وجره تحت القنطرة التي كان يختبئ تحتها عاجله أحد القناصة بصاروخ مما أدى الى استشهاده هو الآخر ، مما جعل عدد كبير من المقاومين التجمع في أماكن غير مكشوفة للطائرات الاستطلاعية منها والهجومية والقناصة ، مثل حوش العطعوط والقريون

والحبلة كان من بينهم يامن وكميل ونايف وربحي وأبو فادي ، وحين أطبق الاحتلال الخناق على هذه الحارات قام عدد كبير من المقاومين بعد ان نفدت حبات الرصاص بالاستسلام ، كان ربحي وأبو فادي يقودان المقاومة في حوش العطعوط عشرات المقاومين يتمركزون في مداخل ومخارج الحوش استشهد وجرح عدد منهم ، بعد ذلك طالبت قوات الاحتلال المقاومين بالاستسلام التفت أبو فادي الى زميله ربحي الذي كان يقف بجانبه وقال : يطالبنا الأوغاد بالاستسلام ... فما رأيك يا أبا الرامز ؟

- اتذكر يا أبا فادي ما قاله مؤيد الجميل ... لن يدخلوا البلدة القديمة إلا على جثثنا وها هو استشهد ... لن نسلم أنفسنا لهؤلاء الأوغاد ولن اتركهم يرقصون فرحا باستسلامي لهم ..صمت قليلا اطرق رأسه اغمض عينيه أخذت الذكريات تمر في مخيلته تذكر الجعفري وراسم حلاوة وغسان وفوتشيك وجيفارا وعمر القاسم عصفت في ذاكرته ابتسامة أبو علي مصطفى عندما سأله أحد الرفاق يوم عاد الى ارض الوطن لماذا جئت يا أبا علي؟ حين قال :جئت لأقاوم لا أساوم ... رفع ربحي رأسه نظر في عيني أبى فادي الذي كان ينتظر الإجابة وضع يده على كتفه وقال : اسمع يا أبا فادي نموت فرحا على أن نموت قهرا .خرج ربحي وأبو فادي من المكان الذي كانا يتحصنان فيه وما أن شاهدا جنود الاحتلال أخذا يطلقان النيران باتجاههم واستمر الاشتباك الى أن استشهدا وعلامات الفرح في وجهيهما.في اليوم التاسع من المعركة كانت البلدة القديمة قد سقطت في أيدي قوات الاحتلال كان هناك العديد من الجثث ملقاة في الشوارع وقد تعفن البعض منها ، عشرات الجرحى في المستشفيات الميدانية دون علاج وقوات الاحتلال تنتقل من منزل الى آخر بحثا عن عناصر المقاومة اعتقلت العشرات ودمرت العديد من المنازل . وعند الساعة الثالثة عصرا قامت قوات الاحتلال بالسماح للطواقم الطبية بنقل المصابين من المواطنين الى المستشفيات بعد أن اعتقلت عددا منهم ودفن الشهداء كان عدد الشهداء أربع وسبعون شهيدا كانت جثامينهم قد وضعت في ثلاجات المستشفيات التي لم تعد قادرة على استيعاب هذا الكم من الشهداء مما

جعلهم يستعينون بثلاجات بعض المصانع المتنقلة . نزل أهالي المدينة كي يودعوا أحبتهم ولضيق الوقت الذي سمحت به قوات الاحتلال لدفن الشهداء استخدمت القبور الجماعية لدفنهم وتوزع الناس بين المقابر ليدفن ربحي في المقبرة المحاذية لمحافظة المدينة والتي دمرها الاحتلال وحولها الى ركام ، في هذه اللحظات من الحزن والغضب استطاع العديد من الرفاق والأخوة الخروج من البلدة المحاصرة . وبعد انتهاء هذه الحملة المسعورة على المدينة توجه يامن وكميل وامجد وفادي وجبريل وباقي الرفاق لزيارة تلك المساحة من الوطن التي يشغلها الآن ذاك العظيم وقفوا بالقرب من تلك الحجارة المصنوعة من الرخام والتي كانت تعكس أشعة الشمس وكأنها تبتسم لأنها احتضنت أبا الرامز ،قال يامن : ما اجمل أن ينام المرء تحت باقات الورود...

من منكم يخبر زوجتي ....

السماء صافية في ذلك النهار والشمس أرسلت أشعتها لتبعث الدفء في أزقة وحارات البلدة القديمة ، لتعلن عن ميلاد يوم جديد ، بدت المدينة حزينة في ذلك الصباح الربيعي بعد أن عاث الجنود في ليلها فسادا ومزقوا صمتها بأصوات القنابل ، الشوارع خالية إلا من بعض المارة الذين اعتادوا على هذه الحياة وباتوا لا يعرفون الخوف .... يخرجون من بيوتهم بحثا عن لقمة العيش بعد أن أصبحت محفوفة بالموت والدم والرعب

خرج امجد من البيت الذي كان ينام فيه .... كان يحلم وهو يقاتل بميلاد دولة على مرمى حجر ، هذا الرجل النحيل الصلب المأخوذ بمطاردات تاريخية عمرها قرن من الاحتلال ، كانت رؤياه كغيره من المطلوبين تشبه رؤى القديسين في زمن الظلام والتخلف إلا انهم حملوا حلم الوطن وساروا بالفكرة واخذوا يستولدون نسوراً جديدة لا تعرف الخوف و الرعب نسوراً بأجنحة قوية يطلقونها في هذه الظلمة الدامسة تخفق في سماء الوطن تحدث حالة من الرعب لم يعهدها الاحتلال من قبل وهي تعرف أنها ستموت الآن أو في الفجر القادم .أخذ امجد يتنقل من حارة الى حارة ومن زقاق إلى آخر بخطى تعلوها الترقب والمفاجأة في هذه المنعطفات الكثيرة التي تتميز بها هذه البلدة الموحشة التي فقدت أمانها ... يخطو مسرعا وأحيانا يخفف الخطى متوجسا ولكن متأهبا ابدا ... كانت يده لا تفارق زناد البندقية وكثيرا ما يهمس في اخمصها (خليكي صاحية معي يا أم الشدائد) كان يحدث رفاقه عن العشق الذي ينشأ بين المقاتل المدافع عن حقه والبندقية كنباتات الزعتر والزعيتمان وقرن الغزال الذي ينبت بين شقوق الصخر ولكن هذا العشق مهدد بالموت متى حاول الوقوف أمام أشعة الشمس . وصل امجد ميدان الشهداء أخرج هاتفه النقال اتصل بزوجته التي كانت تنتظر ظهور الرقم على شاشة هاتفها بشوق ولهفة ... كانت الغرفة التي تسكنها شبه عارية

احتوت سريراً قديماً وخزانة حائط وكرسيين من البلاستيك وبعض أواني الطبخ بعد أن تركت منزلها في القرية لتلتحق بزوجها في هذه المدينة ، ليكون سهلا عليها التنقل من مكان الى آخر .لم تنم لينان في تلك الليلة فقد ارّقها صوت القنابل والانفجارات كانت تنتظر بزوغ الفجر للقاء زوجها تحلم أن تحمل بوطن في ذلك اليوم فمنذ أن تزوجت أبا وطن قبل انتفاضة الأقصى بعام حال القدر في أن يحضنا طفلا أسمياه مسبقا (وطن) وكان امجد قد اتفق مع الرفيقة مسار على ترتيب موعد مع طبيب يعمل في المستشفى لإجراء فحوصات تتعلق بالحمل على أن يقوم الطبيب باستقبالهما وإجراء اللازم بالسرعة الممكنة وهذه الفحوصات تتعلق بعملية زراعة على حساب رئيس السلطة الوطنية الرئيس الراحل أبو عمار سمعت لينان رنين الهاتف ....التقطت السماعة بلهف وشوق وقبل أن تسمع منه كلمة ...بادرته قائلة :صباح الخير يا وطن الحمد لله على سلامتك .... احنا على موعدنا اليوم...

ـ تسلمي يا أم الوطن ... أنا بستناك عند المعلقة ... لا تتأخري .

ـ عشر دقائق وبكون عندك .

عرفت لينان مكان زوجها فقد علمتها الأيام معرفة اللغة التي يتحدث فهذه اللغة لا يعرفها إلا المطلوبون لقوات الاحتلال.ارتدت ملابسها بسرعة وضعت بعض الأوراق المطلوبة في حقيبتها ، أغلقت باب المنزل نزلت الى الشارع مدت يدها الى حقيبتها أخرجت نظارتها السوداء وضعتها على عينيها لتخفي نظراتها أخذت تحدق في المنازل والنوافذ... تدقق في السيارات المتوقفه بجانب الرصيف كانت حذرة متوجسة ...تخشى من ملاحقة أعوان الاحتلال لها فيكون زوجها هدفا سهلا للاصطياد وكثيرا ما كانت تنكر وجوده أو الأماكن التي يتواجد فيها حتى الاتصال به ...سارت بضع خطوات ثم توقفت بعد أن رأت بعض السيارات للوهلة الأولى تعمدت عدم الاكترات أخذت تدقق بوجوه الركاب والسائقين تركت ليدها حرية الاختيار التي أشارت لإحدى السيارات بالتوقف استقلتها الى ميدان الشهداء ... ومن هناك اتجهت نحو المعلقة كان امجد ينتظر ظهورها المباغت ... البندقية تعلو ظهره

وفي عينيه وهج الشمس كان وجهه يستقبل وهج الأشعة الدافئ خارج الجفنين المطبقين اخذ بياض الأشعة يحول وجهه الداكن بحمرة عجيبة لا تعرفها إلا صالونات التجميل ، اقتربت منه لينان وبصوت خافت همست وطن ، أدار امجد وجهه نظر إليها بانت نظراتها سعيدة كأميرة فوق تلال الكرمل وكعروس البحر التي خرجت لتوها من بين الأمواج لوحت بذراعها ثم مدتها مصافحة إياه ... ابتسم امجد ودّ لو يعانقها في هذا الصباح ... لكن الحياة بدت تعود لشوارع المدينة وبدت الأشياء تتفتح ثانية كل شيء ظهر غريبا غامضا وساحرا المنازل القديمة القناطر البوابات المؤدية الى البلدة القديمة وكذلك الأقواس المنتشرة على مداخل الأزقة والحارات وأكشاك القهوة والشاي وبائعو الكعك والمناقيش والبقدونس والنعناع والحليب واللبن.

- ما أجمل هذه المدينة ! هاهي الحياة تعود إليها من جديد.

- أي حياة هذه يا لينان ... بضع ساعات وأحيانا دقائق وربما لحظات وتعود المدينة للخوف والرعب ، وفقدان الأمان ، والمواجهة من جديد .

- آه يا لينان الى متى سنبقى على هذه الحال ؟ بين خوف ورعب وكر وفر ومواجهة مع الخنازير، متى ستنتهي ونحيا حياة كباقي البشر؟ على كل حال سنذهب الآن الى المستشفى .

سأتصل بجاسر ...فهو يعرف كيف يوصلنا الى هناك كان امجد ورفاقه يثقون به جيدا وكثيرا ما كان يتواجد أثناء الزنقات كانوا يطلقون عليه رجل المهمات الصعبة ، اتصل به امجد وطلب منه أن يأتي بالقرب من المعلقة ...رد عليه جاسر دقائق وأكون بطرفك . في مثل هذه الحالات كان جاسر يعمد على تغيير سيارته يتقن التضليل . وقفت لينان وامجد بجانب كشك يبيع الشاي والقهوة والسحلب على أحد الأرصفة عرض عليه صاحب الكشك كأسين من السحلب وعندما همّ امجد أن يدفع ثمنهما ضحك الرجل وقال : (مش عيب علي آخذ حقهم ، كل يوم تعال شوفتك احسن من كل المصاري يا أبو وطن) شكر امجد الرجل وبعد لحظات ظهر جاسر بسيارته المرسيدس أوقفها بالقرب من احد الأرصفة نزل منها ، اقترب من الكشك متظاهرا بعدم معرفته بأمجد وزوجته طلب من

صاحب الكشك كأساً من القهوة ... أومأ بعينيه لأمجد ....أسر امجد لزوجته أن تسبقه الى السيارة حيث توقفت ... سارت لينان من الجهة المعاكسة للشارع وبعد دقائق قليلة تبعها امجد .... جلس الاثنان في المقعد الخلفي ، وبعد أن أنهى جاسر من شرب القهوة سار بخطى سريعة نحو السيارة وقبل أن يصعد إليها وقف بجانبها يستطلع المارة ويدقق في وجوههم حرصا أو نوعا من الحرص الأمني في مثل هذه الحالات ... فتح باب السيارة جلس خلف المقود وبعد أن حمد الله على سلامته - وين العزم يا أبو وطن

- مستشفى رفيديا .

- خير ان شاء الله .؟

- شوية فحوصات ....

أدار جاسر محرك السيارة سار بها باتجاه الشرق من الطريق المؤدي الى شارع البلدية، في بادئ الأمر استغربت لينان ، المستشفى يقع في غرب المدينة والسيارة تتجه الى الشرق ، هل أخطأ جاسر الطريق يا ترى ؟ أشارت بعينيها لزوجها .. ضحك امجد وقال لها كل الطرق تؤدي الى روما ... تنبه جاسر الى ما يدور بخلد أم وطن وقال :علمني زوجك ان لا أسير بالاتجاه الصحيح وان أسير بعكس الإشارات الضوئية وعكس عقارب الساعة أليس كذلك يا أبا وطن ؟

- في هذه الأيام يجب عليك ان تسير بعكس الريح وان تخالف قوانين البحر وتركب قاربا مثقوبا تعبر به الأمواج وان كنت تدرك ان مصيرك الغرق .كانت لينان تجلس بجانبه متكئة على مرفقها وذقنها تنام كطير بين راحة أصابعها ... في رأسها يدور العديد من الأسئلة ....لم يكن امجد ينظر إليها، كان يوزع أنظاره بين الفضاء الخارجي والتلال المحيطة بالمدينة، لم يكن يرمي الى تحييدها، تركها كي تتقاطع أسئلتها مع أجوبته بعد الوصول الى المستشفى، في هذه الأثناء كان جاسر يطرح العديد من الأسئلة على هامش الطريق ، أسئلة عامة ذكية أحياناً وطفولية حينا آخر ... منها ما يتراوح بين الشخصي والعام بين العقل والفطرة بين الحلم والحقيقة

،أخذ امجد يجيب عليه بإسهاب أحيانا باقتضاب ، وحين وصل جاسر الى دوار الحسبة انعطف الى اليمين قاصدا تقاطع الشارع المؤدي الى المخيم وأثناء انعطافه خطر بباله سؤال لم يسأله من قبل .

- امجد بدي أسألك هالسؤال .
- تم إشي ما سألتوش ؟
- لا والله بس بدي أسألك ليش سموك أبو وطن؟ كان الجواب أطول بكثير من المسافة الممتدة من المخيم الى راس العين ... أشعل امجد سيجارته نفث فيها قليلا آه يا جاسر منذ الصغر أحسست أنني قوي ، أصابني مرض وأنا في الثالثة من عمري اضطر والدي الى إدخالي احد المستشفيات الإسرائيلية لإجراء عملية في إحدى الغدد مكثت هناك شهر تقريبا وما زالت أمي تذكرني عندما قمت بالتبول على الطبيب الذي كان يشرف علي.وعندما أصبحت في الثامنة من عمري كنت أرعى الغنم واصطاد الطيور واشتبك مع الأطفال من أبناء جيلي ، كنا نقتتل بالعصي والأيدي كنت شرسا لا يمر يوم دون عراك أو شجار كان والدي يقول:(الله يستر من آخرة هالولد). الأحياء القروية شرسة جدا رغم هوائها النقي الجوع والفقر علمنا القسوة ، طفولة أزقة الوحل والأمراض وأشعة الشمس تصقل سواعدنا ، جزء من الطفولة عشته في الطبيعة بين الرعي والصيد كل ذلك علمني الحرية والاعتماد على النفس وشحنتني بالصلابة كنت أحب ان اعتلي الجبل المطل على قريتنا أراقب الناس وغروب الشمس اقف طويلا تحت المطر وفي مهب الريح والعواصف لأمتحن قدرتي على الوقوف والصمود، كم كنت اعشق ذلك الجبل ،وفي الثالثة عشر من عمري حرمت كما حرم أهل القرية من الوصول إليه بعد ان استولى المستوطنون عليه أقاموا عليه مستوطنة أسموها ايتمار ، سرقوا طفولتي مثلما سلبونا حرياتنا ، وظلت محفورة في ذاكرتي الكهوف والمغارات الصخرية وأشجار اللوز والزيتون ... آه يا جاسر كثيرا ما كنت احلم فيها والعودة إليها ثانية الى ان جاءت انتفاضة الأقصى والتقيت جبريل وفادي ..يومها عادت

ذكرياتي تعصف بي من جديد، تشدني الى حيث كنت طفلا ،جلسنا تحت شجرة زيتون بالقرب من سياج المستوطنة طرحت عليهم فكرة اقتحامها واختطاف أحد المستوطنين تقاسمنا الأدوار بعد أن قمنا بمراقبتها من الجهة الشرقية،كانت المستوطنة تعج بالجيبات العسكرية والجنود والمستوطنين،آه كم انتابني الغيظ وأنا أشاهدهم وسرعان ما ينتابني شعور غريب ، كنت اشعر بالاختناق ، وهم يمزقون طفولتي بعجلات آلياتهم ، استمرت عملية المراقبة أسبوعا كاملا تأكدنا من وجود جيب عسكري يقوم بحراسة المستوطنة بحيث يقوم هذا الجيب بحركة دورانيه التفافية على مدار الإرب والعشرين ساعة وهناك أربع أبراج تحيط بالمستوطنة للمراقبة وعلى مقربة من السياج يوجد مشتل بلاستيك للورود يعود لأحد المستوطنين من الجهة الشمالية المطلة على القرية جددنا الوقت الذي يصل فيه الجيب بمحاذاة المشتل حيث تستغرق المسافة الزمنية التي يقطعها الجيب والوصول بمحاذاته حوالي اثني عشرة دقيقة كانت عملية الاقتحام خطرة جدا" حيث ستتم عملية الاختطاف في زمن يساوي نصف المدة التي يقطعها ذلك الجيب قبل أن يصل ويتنبه لوجودنا ، اتفقنا على ساعة الصفر بحيث أقوم أنا وجبريل بقص الشريط ويقوم فادي بالمراقبة .وفي صبيحة يوم الجمعه تسلقنا الصخور حتى وصلنا المنطقة المنشودة كنا نتسلل تحت أشجار الزيتون ونختبئ خلف الصخور كنمور واجفة كي لا يرانا الجنود المتواجدون في أبراج المراقبة حتى اقتربنا من السياج قام جبريل وبسرعة فائقه بقصه، تسللت الى داخل المستوطنة وبقي جبريل وفادي يراقبون من خلف صخرة تطل على المستوطنة ... اقتربت من المشتل نظرت بداخله ..كان الخنزير يرش الورود بالماء ..فجأة سمعت صوتاً خفيفاً..فإذا جبريل يحذرني من أن الجيب العسكري قادم ويطلب مني أن اهرب ..اختبأت خلف شجرة زيتون ما زالت قائمة ولم تطلها جرافات المستوطنين إلا أن جبريل شعر بالخطر وطلب مني الانسحاب ..اشرت له ان يختبئ ، قررت تنفيذ ما اتفقنا عليه

... الوطن يحتاج الى تضحية يا جيب ،لا أدري يا جاسر كيف قلت هذه الكلمة والتي أصبحت لقباً لجبريل فيما بعد أما جبريل بعد ان سمع هذه الكلمة قال لي : اختبئ جيدا يا أبو الوطن وضعت أصابعي على الزناد متحفزا لأي طارئ اخذ الجيب بالاقتراب رويدا.. رويدا الى ان أصبح على بعد خطوات انتابني شعور بالخوف ان يتنبه الجنود لوجودي وتفشل الخطة لكن لحسن الحظ مر الجيب دون ان يراني ثم شاهدته يختفي في الجهة الغربية للمستوطنة قفزت داخل المشتل كان الخنزير في الخمسين من عمره أشهرت عليه السلاح بدا مرتبكا للوهلة الأولى ...ارتجف اخذ يصرخ حاول ان يمد يده لالتقاط سلاحه من مخزنه الجلدي الذي كان مدلى على جانبه ، وبسرعة فائقة قفزت عليه ضربته بعقب المسدس حاولت سحبه من المشتل إلا انه حاول الإفلات مني كان يصرخ كالثور الهائج الذي تلقى رمحاً أدماه في حلبة مصارعة الثيران ،عندها أدركت خطورة الموقف ، أطلقت عليه النار سقط على الأرض لذت بالفرار ، خرجت مسرعا من المشتل باتجاه السياج المقطوع بدأت اسمع طلقات النار من خلفي ... كلاهما ينتظراني خلف الصخرة وقد جمد الدم في عروقهم خوفا علي ، وجوههم تتصبب عرقا، بدا جرس الإنذار في النعيق وأصوات الرصاص تتعالى وتهدر كالرعد ، أمرتهم بالانسحاب ... أخذ الرفاق يقفزون هنا وهناك متجهين نحو أشجار الزيتون الكثيفة ، وصلنا الى منطقة تسمى النجمة وهذه الأرض ملأى بأشجار الزيتون وتفصل قريتنا عن قرية سالم ، جلسنا تحت شجرة زيتون رومية لنستريح قليلا ونراقب ما يجري وبعد دقائق قليلة سمعنا صوت مروحية هبطت في المستوطنة حضرت لنقل الخنزير وبدأت حركة الجيبات العسكرية والجنود تتحرك صوب قريتنا عندها قررنا الهرب الى قرية سالم ومن هناك ركبنا الى نابلس ، ومنذ ذلك الحين اخذوا يطلقون عليّ (أبو وطن) وجبريل (الجيب) كان جاسر في هذه الأثناء صامتا يستمع لامجد وهو يسرد هذه القصة الغريبة والتي بتفاصيلها تشبه الخيال لذلك كان قد عمد

على الإبطاء في قيادة السيارة وكثيراً ما تعرض الى أصوات أبواق السيارات من خلفه تحثه على السرعة أو إفساح المجال لها بالمرور وفي هذه الأثناء كانت لينان تصغي لزوجها وقد ارتسم على وجهها علامات الإعجاب وكانت أساريرها توحي بذلك وحين أنهى زوجها حديثه قال جاسر: نيالك يا أم الوطن والله يا عمي اعرفتي انتقي. شكرت لينان جاسر على هذا الإطراء لكن امجد أجابه وراء كل عظيم امرأة ،في هذه الأثناء كانت السيارة تقترب من المستشفى ولينان غرقت في أحلامها من جديد فهي على مقربة من الوطن ..أما امجد كانت زوجته تشاد في أعماقه من جديد تنمو وتكبر في كل يوم وكان يردد كلما خلا الى نفسه ما دام الجوهر أصيلا فلا بد من الحفاظ عليه والصلاة من اجله وخصوصا انه خرج وهي من ضلوع القرية يترنحون في هذه المدينة بلا ارض إن سماء وجدران تضمهم في ثناياها بعيدا عن الخوف والألم ، اقتربت السيارة من المستشفى كانت حركت الناس والسيارات في ازدحام مستمر لكثرة المراجعين والزوار ، ركن جاسر سيارته بجانب الرصيف المقابل للبوابة الرئيسة ، طلب منه امجد ان يحافظ على أم الشدائد لانه لا يريد ان يثير حفيظة الناس ، وطلب منه الانتظار حين الانتهاء من الطبيب ، وان يبقي عينيه على المفارق المؤدية للمستشفى والاتصال بالآخرين لمعرفة أخبار وتحركات الجيش وإعلامه بالأمر إذا ما حصل طارئ دخل امجد الى ساحة المستشفى استفسر من احد الممرضين عن الطبيب المذكور الذي اعلمه بوجوده في مقر العيادات ، توجه امجد ولينان الى المقر الواقع في الجناح الجنوبي من المستشفى وعندما وصلها اتصل برفيقته مسار التي قامت بدورها في الاتصال بالطبيب ، وما ان سمع الطبيب بوجود امجد قام على الفور بإنهاء الحالة التي كان يعالجها ثم خرج لاستقباله ، اخذ الطبيب يقلب ويتفحص الوجوه حيث لم يكن التقاه من قبل ، بل كان يسمع عنه وكثيرا ما كان يحب التعرف عليه والاجتماع به والاستماع لأخباره ، عندما رأى امجد الطبيب عرف امجد من نظراته انه يبحث

أشار امجد بيده من بين جموع عنه وبحركة لا تثير الانتباه ، ثم تقدم نحوه طلب الطبيب منه الدخول الى الغرفة المرضى ، أغلقت لينان الباب كان الطبيب مغتبطا مرتبكا بعض الشيء تبعته لينان ،

- أهلا وسهلا ... أكيد إنت أبو وطن ... اسمعنا عنك كثير ، والله إنكم ابترفعوا الراس ...
- شكرا الك يا حكيم ... حابين انغلبكم معانا اليوم ...
- ولو يا رجل هذا اقل شي بنقدر انقدملكم إياه ...بكفيكم همكم وسهركم ...صدقني قلوبنا معاكم ، على كل حال اخبرتني رفيقتكم مسار عن موضوعكم وهذه المرة الثانية التي تنوون فيها الزارعه ، انا حابب أوضح بعض الأمور ، عملية الزراعة قد تنجح في أول مرة ، وقد يحتاج الإنسان للزراعة اكثر من مرة ، وهي لا تتعلق بعمر الإنسان . حدثهم عن المرأة التي أنجبت ستة توائم بعد المرة الثالثة من الزراعة وعن أخرى أنجبت وهي في الخمسين من عمرها وعن احد الأزواج الذي تزوج مرتين على زوجته الأولى من اجل الإنجاب وكيف ان زوجته الأولى أنجبت له توأمان بينما لم تنجب الثانية والثالثة . كان امجد وزوجته ينصتان لحديث الطبيب وما ان انهى الطبيب قصة ذلك الزوج ضحك وبانت أسنانه من تحت شاربيه وقال للطبيب مازحا : انا لا أريد الزواج ، كل ما أتمناه ان تحمل زوجتي وبعدها لو استشهدت بكون مطمئن .
- احنا بحاجتك ... الله يحميك من شرهم ..
- صدقني يا دكتور هذه هي الحقيقة ... الواحد منا عارف حاله أما السجن وأما القبر ..لكن في فرق في الموت ... هناك من يموت قهرا وهناك من يموت فرحا ... واحنا بنفتش عن موت لا يزيد الأموات حزنا ولكن يزيدهم يا حكيم عزاً وفخراً .

أدرك الطبيب انه يقف أمام إنسان غير عادي لا يطلب في هذه الدنيا ولا يتمنى منها سوى طفلا يحمل اسمه من بعده، وأي اسم ؟ لكن ما العمل ؟ هذه إرادة الحياة .

-على كل حال احنا بنعمل اللي علينا والباقي على الله ...أعطوني الأوراق اللي معاكم ... فتحت لينان حقيبتها أخرجت منها مجموعة من الأوراق ، أخذ الطبيب يقلبها بين يديه يتفحصها بدقه وبعدان انتهى منها راح يوجه أسئلته موزعا إياها بين امجد ولينان ، وبعد ان انتهى منها أخرج دفترا صغيرا واخذ يكتب عليه عدد من الفحوصات المطلوبة ثم اتصل بمدير المختبر وطلب منه مساعدتهم اصطحب مدير المختبر امجد وزوجته بعد ان شكروا الطبيب على حسن الاستقبال والمعاملة الى المختبر أجرى لهم الفحوصات المطلوبة ثم اعلم امجد ان النتيجة ستظهر بعد ثلاثة أيام أو أربعة على الأقل ، وبعد ان شكر امجد مدير المختبر خرج من عنده مسرعا كان جاسر بانتظارهم خارج السيارة، تظاهر بعدم معرفتهم وسألهم :

-على البلد ...؟

-إن شاء الله

-اتفضلوا .

صعد امجد ولينان السيارة طلب منه ان يوصل زوجته الى بيت احد الأقارب والذي يقيم بالقرب من المستشفى قام جاسر بإيصال لينان الى حيث أراد امجد ودعها بعبارات الأمل : الله يسمعنا الأخبار الطيبة

-ان شاء الله يا أبو وطن ، دير بالك على حالك .

-ظلت نظراته تلاحقها الى ان اختفت عند أول منعطف يؤدي الى البيت، تحرك جاسر بسيارته باتجاه المدينة تاركاً للصمت مجالاً عند امجد كي يخبره عن سر هذه الزيارة إلا أن امجد كان غارقا بأفكاره ، آه كم تكون فرحتنا إذا نجحنا هذه المرة ، وإذا لم تنجح هذه المحاولة ، كيف سيكون حال لينان ، آه يا لينان لم نهنأ ولو للحظة منذ ان تزوجنا ، لم استطع ان اوفر لك السعادة التي تبحث عنها كل فتاة تزوجت بمن تحب ، حتى وطن يعاندني القدر أن أضمه أو نضمه معا ... في هذه الأثناء تدخل جاسر ليقطع عليه حاجز الصمت .

- ها يا أبو وطن .. خير ان شاء الله ... شو صار معاكم .

اعملنا فحوصات علا وعسى ان يأتينا وطن ، خرجت الكلمات من
فمه مجبولة بقليل من الأسى والألم ، أدرك جاسر انه اخطأ بتوجيه
هذا السؤال ... رغم انه يعلم مدى العلاقة الحميمة التي تربطه بهم ..
- آسف يا أبو وطن لم اقصد ان اجرح مشاعرك بس أنا بحب الك
الخير والله ، اللي بزعلك بزعلني ، أتمنى ان تنجحوا هذه المرة
ونفرح كلنا .
- أتمنى ذلك يا جاسر .
كانت السيارة قد وصلت الى مشارف المدينة من الجهة الغربيه، طلب
منه امجد ان ينزل عند باب المسمكة شكر جاسر كثيرا ثم نزل من
السيارة واختفى بين الجموع الغفيرة التي كانت تجوب الأسواق في مثل
هذا الوقت .
وبعد أربعة أيام توجهت مسار الى المستشفى التقت الطبيب المشرف
على امجد ولينان رحب بها كثيرا ثم طلب من الممرضة إحضار نتيجة
الفحوصات من المختبر ، وبعد لحظات عادت الممرضة وفي يدها
مغلف صغير، فتحه الطبيب اخرج منه الأوراق وبدا يتفحصها يقلبها بين
يديه مرات ومرات وفي كل مرة كان يهز رأسه صامتا.
-ان شاء الله خير يا دكتور ؟
-اسمعي يا بنتي النتيجة للأسف سلبية وهذا لايعني نهاية المطاف ... قد
تتحسن الأمور في القريب على كل حال سأكتب لهم هذا العلاج .كان
وقع النتيجة قاسيا عليها ... ترددت قليلا في حمل الخبر... فأبو وطن
ينتظرها وكذلك لينان.. الكل ينتظر النتيجة بفارغ الصبر ، لكن مسار
ماذا تقول لهم ؟ أتخبرهم أن وطن قد تأخر قدومه ، وان الأمل ما زال
قائما كما اخبرها الطبيب وان حبات الدواء التي تحملها في هذه الورقة
تحمل في ثناياها حبات المطر ، آه ما اصعب هذه المهمة ودت لو ان
امجد كلف غيرها في هذه المهمة ، خرجت من المستشفى بعد ان قررت
ان تخبره بنفسها ، اتصلت به اخبرها بوجوده عند العمة ركبت مسار
سيارة كانت متوجهة الى المدينة ، نزلت منها عند أول بوابة تؤدي الى
بيت العمة تحمل ذاك الخبر الذي تمنت ان لا تكون هي التي ستنقله لهم ،

فهي التي تحبهم تنقل أخبارهم وتتحسسها في عتمه الليل ووضح النهار ، أي خبر هذا ؟ لكن لو لم أقم أنا بهذه المهمة سيقوم غيري والنتيجة واحدة في نهاية الأمر .شقت مسار طريقها بين الناس الى ان وصلت باب المنزل ، ارتجفت يدها ، ترددت قليلا قبل ان تطرق باب المنزل فتحت العمة الباب عانقتها ورحبت بها كثيرا ثم دخلت مسار الى الغرفة حيث كان امجد جالسا ، لم يكن معه احد من الرفاق ، سلمت عليه مسار ولم ينتظرها حتى تلتقط أنفاسها أو تجلس في مكانها .

-شو الأخبار ... إن شاء الله خير .

-خير ان شاء الله.

صمتت قليلا وبدأت مرتبكة وعلا وجهها حمرة عفوية قرأ من خلالها امجد بعض علامات الحزن ، وانتظرها لتجيب على السؤال ، أطرقت مسار رأسها قليلا ثم رفعت عينيها وبصوت أجش أجابت:

-اخبرني الطبيب ان الأمور قد تتحسن وصرف لكم هذا العلاج .

احس امجد بدوار في رأسه وضع رأسه بين يديه واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ، اغمض عينيه لم يكن الخبر سهلا ماذا سيقول لزوجته التي تنتظر النتيجة بفارغ الصبر ، تنتظر وطن ..كم تحب الأطفال ... ساد صمت عميق الغرفة ... كانت فيها مسار تنظر الى امجد والى العمة التي أخذت الدموع تتساقط من عينيها كقطرات الندى على عناقيد العنب ...

-شو مالك يا أبو وطن ... هذه لست النهاية ... وأنا بعرف انك قوي ... غيرك زرع مرات ومرات ... شد حيلك يا بطل ... هاي المرة عنت وخلاص ... انشاء الله المرة القادمة بنفرح كلنا أوبيجينا وطن .

رفع امجد رأسه وقد اغرورقت عيناه ، وقال : مسار من منكم يخبر لبنان ؟

(ان تحضن الوطن بدلا من وطن)

في بداية تشرين ثاني لعام الفين وأربعة كان فادي يختفي لساعات أحيانا لأيام لا أحد يعرف من الرفاق أين يذهب فهذا الشهر يحمل في ذاكرته مناسبة عزيزة على الرفاق ، في الحادي عشر من هذا الشهر لعام ألف وتسعمائة وسبع وستين انطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لتكون رائدة الكفاح المسلح والنضال ضد الاحتلال ، كان الرفاق يحضرون لهذه المناسبة على قدم وساق فمنهم من كتب الشعارات وبطاقات الدعوة وآخرون يعلقون اليافطات في أماكن مختلفة من المدينة وبعضهم يحضر عرافة الاحتفال والكلمات التي ستلقى في هذه المناسبة الكل منهم يريد النجاح لهذا المهرجان كانوا يحشدون كل الطاقات والإمكانات لضمان نجاحه وإخراجه بصورة تليق بتاريخ الجبهة وعطائها ، وخصوصا أن كتائب أبو علي مصطفى كانت في أوج عطائها ومقاومتها للاحتلال ، لكن فادي يخطط للاحتفال بطريقة والأحرى من ذلك طريقة الجبهة الخاصة في مثل هذه المناسبة ،لذلك كان يخرج متنكرا بزي عجوز إلى (بلاطة البلد) يسير في شوارع وأزقة هذه القرية التي ما زالت تحافظ على طابعها الريفي يشرب من عين الماء المتواجدة في أول مدخل القرية ويجلس أحيانا للراحة تحت أشجار اللوز والتين والزيتون ، كان همه مراقبة (قبر يوسف) هذا المقام والذي يدعي الاحتلال انه قبر سيدنا يوسف الصديق والذي اصبح مزارا يحج إليه قطعان المستوطنين هو عبارة عن مقام لأحد الأولياء الصالحين يدعى (يوسف دويكات) كما تشير حروف التاريخ ، وفي بداية الانتفاضة قام عدد كبير من المواطنين وعناصر المقاومة بمهاجمة المقام ومحاصرته وتم قتل عدد من جنود الاحتلال الذين كانوا يقومون بحراسته والسيطرة عليه إلى أن تدخلت قوات الأمن الفلسطينية التي قامت بتسليم القتلى والأسرى لقوات الاحتلال والتي لم تعد إلى ذلك المكان إلا في أوائل عام الفين وأربعة ، كان فادي يمر من أمام المقام يتوكأ على عكازته يحصي عدد الجنود والجيبات العسكرية وعدد الباصات التي تأتي للصلاة ، لم يتنبه جنود الاحتلال لهذا العجوز الذي كان يمر من أمامهم ويحمل تحت قمبازه حقد كل هذه السنين من المعاناة والألم الذي زرعته قوات الاحتلال في قلوب كل طفل وشيخ وامرأة في هذه الأرض ، استمرت عملية الرصد والمعاينة للمكان عدة أيام وما أن انتهى قرر أن يخبر يامن بخطوات المهرجان وحفل الانطلاقة

يوم الجمعة ٢٠٠٤/١٢/٧ الساعة الخامسة عصرا كان فادي يجلس في إحدى صالات (فندق الياسمينة) يستعرض الماضي ويقرا الحاضر المستقبل اتصل بيامن اخبره بمكان تواجده ، تناول فنجان القهوة اخذ يرشف منه وهو يحدق في الوجوه التي كانت تتواجد في الفندق ، وبعد قليل حضر يامن وأبو وطن وجبريل جلسوا حول الطاولة التي اختاره فادي في زاوية الصالة تقدم منهم النادل ...كان يعرفهم جيدا يعرف كيف يحضرون إلى الفندق والطريقة التي يخرجون فيها ... قهوتهم أكلهم شربهم ... حياهم ثم سألهم : قهوة سادة ... هز يامن رأسه بالإيجاب ... كان فادي غارقا في التفكير بدا ذلك من الطريقة التي كان يجلس فيها وقبعته التي غطت نصف عينيه ... شو مالك يا أبو الفدا سال امجد؟ صمت فادي قليلا رفع رأسه ثم قال: بفكر في احتفال الانطلاقة ... اتفقنا مع باقي الرفاق على المارش ... رد عليه يامن ... أنا بفكر أنا نحتفل على طريقتنا الخاصة ... كيف ؟ سال جبريل ؟ غدا السبت وقطعان المستوطنين بدهم ايصلوا في قبر يوسف وهاي فرصتنا قال فادي وفي عينيه علامات التصميم ... اخبرهم فادي عن سر انفعالاته ، جلس أربعتهم يناقشون أبعاد العملية نجاحها خطورتها ، وأخيرا اتفقوا على العملية على أن يقوم بها فادي بمهاجمة المستوطنين وجبريل بتأمين الحماية

الساعة التاسعة مساء استقل فادي وجبريل سيارة احد الشبان ساروا بها باتجاه بلاطة البلد اركن جبريل السيارة بالقرب من إحدى البنايات القريبة من المكان نزل منها فادي وتبعه جبريل وصلوا إلى المكان الذي حدده فادي مسبقا للهجوم وهذا المكان عبارة عن حقل مليء بالأشجار تحجبه بنايات مرتفعة عن نقطة المراقبة المقامة على جبل الطور بحيث لا تستطيع اكتشافهم أثناء عملية الانسحاب جلسا خلف الأشجار القريبة من القبر وأنظارهم متجهة نحو مفترق الطرق المؤدي إلى قبر يوسف وبعد ساعة من الانتظار سمعا صوت محركات الجيبات العسكرية تقترب من المكان كانت أنوار وكشافات الآليات تطغى على الضوء المنبعث من أعمدة الكهرباء وبعد لحظات ظهرت آلية نصف مجنزرة في أول الشارع ثم عدد من الجيبات العسكرية التي انعطفت يسارا باتجاه القبر ثم تلاها حافلتان تقلان قطعان المستوطنين ، كانت تسير ببطء وما أن وصلت بمحاذاة سور المدرسة المحاذي للمقام توقفت ثم

نزل منها الجنود الذين ساروا باتجاه الحافلتين اللتين توقفتا أمام المقام نزل المستوطنون من الباص تجمع حولهم الجنود كان فادي وجبريل يرقبون حركاتهم وما أن انتهوا من النزول همس فادي بأذن جبريل أن ساعة الانقضاض قد حانت ثم فتح النار نحوهم وتبعه جبريل اخذوا يتساقطون وبدا صراخهم وعويلهم يرتفع في السماء ، اخذ الجنود يطلقون النار في جميع الاتجاهات إلا أن فادي وجبريل كانا يفرغان ما بجعبتهما من رصاص ثم انسحب الاثنان إلى أن وصلا إلى حيث كانت السيارة بانتظارهم وبسرعة البرق ساروا بها إلى البلدة القديمة حيث كان الرفاق بانتظارهم على أحر من الجمر ... ليبدأ الاحتفال ...

كانت السماء حبلى بحبات المطر فهي على موعد مع الريح لتضع حملها
وتوزعه هنا وهناك، فهي تبشرنا بفصل شتائي جديد ،والأرض تنتظر
بلهفة وكان سماءنا وأرضنا عاشقان يعانقان بعضهما البعض خارج
قوانين الطبيعة وقوانين المخاض فتنبئ بخير ومولود وموسم جديد
لتضيف لنا حياة جديدة ملؤها الحيوية والتواصل والاستمرار والحلم
والأمل ....وعلى غير عادة اتسم الموسم بشتاء غزير وكأن مراحل البرد
التي يقسمها أجدادنا الى سعد بلع وسعد السعود والمربعانية وسعد الخبايا
تحولت الى سعد الذابح الذي أخذ برده القارص ,يلسع جدران البلدة
القديمة وأزقتها الضيقة والريح يعلو صفيرها من حين الى آخر، الناس
في منازلهم يلتفون حول المدافيء لتقيهم برد كانون ،شوارع وأزقة البلدة
القديمة خالية من المارة إلا من أولئك الشبان الذين تطاردهم قوات
الاحتلال يبحثون عن أماكن يختبئون فيها تقيهم برد الشتاء ، لم يكن سهلا
عليهم أن يجدوا منزلا يأويهم أو يلجأون إليه ، وهذا الأمر ليس غريبا في
هذه المدينة المحاصرة منذ اكثر من أربعة أعوام والتي يجتاحها القتلة ليل
نهار ,فقد عمد جند الاحتلال خلال مداهمته للمنازل بحثا عن المطلوبين
على تدمير ممتلكات المواطنين وإلحاق الأذى بهم لزرع الخوف وبذر
الفتنة بين الناس والكراهية ضد المقاومة والمقاومين ,لذلك اخذ المطلوبون
يتجنبون المبيت في المنازل والأماكن المأهولة ليجنبوا أهلها شر الاحتلال
وبطشه، في تلك الليلة كان فادي وجبريل يتجولان في أزقة وأروقة
وحارات البلدة القديمة بحثا عن مكان كي يقضوا ليلتهم ,السماء أخذت
تفرغ ما في جعبتها من أمطار والبرد بدا يتسلل لجسمهما عبر ملابسهم
المبتلة حتى نخر العظام توقفا تحت مظلة منصوبة فوق باب أحد محلات
الحلوى المتواجد في آخر شارع النصر كانت عقارب الساعة تشير إلى
الثانية عشرة ليلا همس فادي في أذن جبريل بماذا تفكر يا رفيق ؟ اخذ
جبريل يفرك يديه المبتلتين بالماء تارة وتارة أخرى يضعها على شفتيه

وينفخ فيها من الهواء الدافئ المتدفق عبر رئتيه عله يعيد الدفء لأصابعه
بعد أن تجمدت من شدة البرد، حاول جاهدا أن يرد عليه إلا أن الكلمات
تجمدت هي الأخرى وبدت عاجزة عن الخروج فكانت تصطدم بفكيه
التي أخذت تتحرك بحركة لا إرادية ،حاول أن يخرج الكلمات لكن شدة
الريح خطفتها من فمه المرتجف لم يسمع فادي منها شيئا ، رفع رأسه قليلا
وابتسم عرف فادي منها ما يدور بخلده فالإثنان يعرفان بعضهما البعض
اكثر من نفسيهما ، كانا يقضيان جل وقتهم معا خلال سني الانتفاضة
حتى في الجامعة لم يفترقا إلا وقت المحاضرات ، آه يا رفيقي تنهد فادي
وأضاف اعلم انك تريد أن نذهب إلي بيت العمة ربما تجدها ألان جالسة
أمام الشباك تنتظر قدومنا رغم هذا البرد القارص ، مسكينة لا تعرف
النوم أبدا خلال هذه السنوات فهي تقضي معظم الليالي تراقب طلوع الفجر
وصياح الديك تنتظر رجوعنا بفارغ الصبر حتى تطمئن علينا وكثيرا ما
تتصل بنا تتحسس أخبارنا تعتبرنا كأبنائها رغم أنها لم تنجب إلا بنتا
واحدة لقد فتحت منزلها لكل المطلوبين من كافة الفصائل والكتائب تعد
لهم الطعام وتغسل ملابسهم ،كان يناديها كل واحد منهم (أمي) وكم كانت
تغمرها السعادة عند سماع هذه الكلمة ذات يوم كان منزلها يعج بالعديد
من المقاومين المطلوبين، من كافة الأطياف السياسية تجمعوا كلهم حول
مائدتها كانت منهمكة في إعداد الطعام لم تكن تميز بينهم تغمرهم بحنانها
وعطفها تحرص على تحضير الطعام الذي يجمعون عليه ، انتهت من
تجهيز المائدة جلست خلف النافذة المطلة على السوق تراقب حركة المارة
وتتفحص وجوههم خوفا من أن يتسلل بينهم قوات خاصة من جند
العدو الذين كانوا يتنكرون بالملابس المدنية ويتسللون بين الناس لضرب
المقاومة وتارة أخرى توزع عواطفها علينا وحنانها كنا نتناول الطعام
ونتحدث عن ليالينا المحفوفة بالمخاطر والألم نظر إليها أحدنا وقال: لماذا
لا تشاركينا الطعام يا أمي ؟ابتسمت وقامت من مجلسها واقتربت منه
وضعت يدها على رأسه أجابت بكلمات ممزوجة بالأمومة التي كان
يجيش بها قلبها (صدقني يما كأني أنا اللي بوكل ، كلوا يما صحتين وعافية
أنا بوكل بعدين المهم انتو) وقف يامن بعد أن وضع من يده ما تبقى من

رغيف الخبز جانباً ورد قائلا (والله يما اللي إنت اعملتيه ما عملته اجتماعات الفصائل في القاهرة وغزه جمعتينا كلنا ووحدتينا) ضحكنا جميعا وقال أبو وطن(والله اللي ابتحكي في صحيح،شو رأيك نبعث أمنا على المفاوضات يمكن تقنعهم) ضحكت العمة و عادت الى النافذة ووضعت يديها على خديها لتكفكف دمعها لئلا يراها احد، تنبه لها نادر وتبعها ليهدئ من روعها وجلس الى جانبها وضع يده على رأسها ضمته الى صدرها وأجهشت بالبكاء فنادر له معاملة خاصة ليس من العمة فحسب بل من سكان البلدة القديمة قاطبة،كان نادر نادراً بين المقاومين للاحتلال فهو ابن لعائلة فقيرة من الطائفة السامرية والتي تعيش على جبل جرزيم منذ آلاف السنين ،ترك أهله لينضم الى كتائب أبو علي مصطفى ليمتزج الدم الفلسطيني من مسيحي ومسلم وسامري في هذه المعركة الطويلة ضد الاحتلال ،والذي حاول مرارا الإثارة النعرة الطائفية في المجتمع الفلسطيني ،سألها (مالك يما احنا عندك)؟رفعت رأسها حدقت بهم أخذت الكلمات الممزوجة بالحزن والألم والاحترام والإعجاب بهم تنساب من شفتيها تعبر فيها عن الخوف الذي ينتابها فالاحتلال يجتاح المدينة بحثا عنهم لا يترك لهم مجالا للراحة حتى للنوم ،كان يامن يجلس في زاوية المنزل يراقب حركات وخلجات هذه الام التي شاءت الظروف أن تكون أما لهم ما أعظمها تخاطر بنفسها ببيتها وزوجها في سبيل ان توفر لنا ما افتقدناه حتى من اقرب الناس لنا توفر لنا الحب والدفء والمأوى والمأكل والمشرب ثم اخذ يردد في نفسه ما كتبه رفيقه كنفاني في عائد الى حيفا(الإنسان موقف وقضية وانتماء) .في تلك اللحظات مد فادي يده الى جيب سترته الرطبة التي لا زالت تقطر ماء اخرج جواله النقال وحاول أن يتصل في بيت العمة فجأة سمعوا أصوات خطوات تقترب منهم ركض فادي الى الجهة الأخرى للشارع تبعه جبريل بعد أن مشط سلاحه واختبأ وراء بسطة للفلافل موضوعة على الرصيف أشار بيده لفادي أن يأتي كي يختبئ معه لكنه كان منشغلا في مراقبة الزقاق المؤدي الى حارة القريون أقعى على ركبتيه تفرس كاسد قبل فوهة البندقية المتعطشة لدماء الكثله وقال :هذه فرصتك يا رفيقتي أدار بوجهه الى الخلف اشار بيده على

جبريل أن يأتي ليحمي ظهره قفز ، جبريل من مكانه وسار باتجاه فادي اقترب منه تسمرا في مكانهما بكل يقظة وحذر كانت الخطوات ووقع صوت البساطير تسير ببطء تقترب من الهاوية تقترب منهم وضعوا أصابعهم على الزناد فهذه فرصة لا تعوض لتلقين القتلة درسا في القتال والمقاومة ،أزفت الساعة كي نريهم كم هم جبناء ولم يظفروا بنا إلا بالغدر وكثرة الذخيرة فهذه فرصتنا لنكون أندادا أو نموت شهداء ، كان الظلام دامسا لا يستطيع أن يميز الواحد منهم فوهة سلاحه ،لا تطلق النار حتى تتأكد من القادمين همس جبريل قد يكونوا خفافيش الليل وخنازير الاحتلال وقد يكونوا ممن يبحثون عن مكان مثلنا، تريث قليلا أجابه فادي ، صمت كلاهما قليلا كانت دقات قلبيهما تتسارع وتعلوا بين الحين والآخر كدقات الساعة المعلقة على جدار كنيسة مهجورة ،وتوشوش (الشجاع يقاوم والجبان يخون) حتى كاد الواحد منهم أن يسمع دقات قلب الآخر، تسمروا في أماكنهم لكن أصابعهم متوثبة للضغط على الزناد وأعينهم تحدق خلال الظلام لتعلن ساعة الصفر للانقضاض كنسر على فريسته وبعد لحظات انفرجت الأزمة ظهر شابان مألوفا الشكل والمظهر ،أخذت الدقائق والثواني والتي خلناها كسنة ضوئية تحل طلسم تلك الخطوات القادمة عبر الزقاق وان القادمين ليسا وحدات خاصة أخذت الصورة تتجلي شيئا فشيئا كان أحد الشابين طويلا ونحيل البنية يحمل بيده بندقيته ويسير بخطى متثاقلة لقد بدت عليها علامات التعب والإرهاق من شدة البرد وخلفه يسير شاب متوسط القامة عريض المنكبين تهدل شعره على جبينه بعد أن عبثت به الريح وحبات المطر ،وما أن اقتربا منهم همس فادي قائلا:الشيخ إبراهيم ومجدي وقف على قدميه التي عجزت عن الحراك من شدة البرد وخطورة وحساسية الموقف هتف قائلا (وين رايحين)انتفض الشيخ إبراهيم ووضع يده على الزناد لم يكن يتوقع أن يلقاهم في هذه الساعة من الليل تعانقوا عناقا حارا فلم يلتقوا منذ زمن بعيد،كان دفء اللقاء اكثر من كافيا لينسيهم قسوة البرد وهاجس الموقف الذي جمد الدم في عروقهم ،توقفوا تحت سقف القنطرة التي تؤدي الى حوش القرويون اخذ الشيخ إبراهيم يحدثهم عن رحلته عبر الجبال لزيارة

أمه التي لم يرها منذ أشهر في مدينة طولكرم والمخاطر التي تعرض لها أثناء عودته الى نابلس لم يكن الأمر سهلا عليه فهو مطلوب للاحتلال قبل اجتياح مدينته وعندما ضاقت به السبل لجأ الى البلدة القديمة ونال احترام كل من تعامل معه من الشباب ،أما مجدي تتهمه قوات الاحتلال بالوقوف وراء العديد من العمليات التي نفذتها حماس في الآونة الأخيرة ، وبعد أن خفت حدة المطر قليلا وانقشعت بعض الغيوم ولاحت في الأفق لآلئ النجوم التي كانت تزين صدر السماء، تشاور أربعتهم على مكان يذهبون إليه ويقضوا فيه ما تبقى من ساعات الليل ، اجمعوا على الذهاب الى حوش (آل عبده)وهذا المكان متاخم للسوق الشرقي للمدينة ويبعد عن المكان المتواجدين فيه مائة متر تقريبا والطرق المؤدية إليه مليئة بالبسطات وعربات الباعة وغيرها من الأزقة والطرقات والممرات المحفوفة بالمخاطر والتي لا يعرفها سوى أهلها وقاطنيها ، ساروا با تجاه باب الساحة ومن ثم عرجوا الى شارع الجامع الكبير كانوا يسيرون بخطى ملؤها الحذر والترقب وكانوا يحرصون ألا يحدثوا ضجة تلفت الإنتباه ، وما أن وصلوا الى نهاية الشارع حيث يوجد المنعطف المؤدى للدرج الذي يطل من فوقه على الحوش جلسوا خلف بسطة منصوبة أمام احد محلات بائعي الخضرة ليلتقطوا أنفاسهم وبعد دقائق قليلة قرروا أن يذهب جبريل ليستطلع المكان تحرك جبريل بخطى سريعة عبر الزقاق الذي امتلأت حفره بالماء،كانت الأمتار التي تفصلهم عن المكان تبدو بلا نهاية صعد جبريل الدرج بسرعة وضع يده على الحجارة التي كانت تفصل البستان عن الزقاق تسلقها بخفة استلقى عليها للحظات قليلة اخذ يمعن النظر هنا وهناك قفز على سطح الغرفة جلس على ركبتيه اخذ يتفحص المكان نزل الى البستان المحيط بالحوش والمزروع بأشجار اللوز والزيتون في زاويته الشرقية كانت شجرة من الجوز عمرها اكثر من مائة عام ترتفع لعشرات الأمتار وتغطي بأغصانها وأوراقها المنازل المجاورة للحوش وفي نهايته من الجهة الغربية باب صغير يؤدي الى حارة الشيخ (مسلم) اخذ يسير بخطى ملؤها الحذر صوب تلك الشجرة كان هناك سلسلة من الحجارة تقسم البستان الى نصفين صعد جبريل

السلسلة بخفة توجه نحوهااخذ يمعن النظر فيها كانت خيوط الفجر تنساب عبر أوراقها العريضة وشاهد من خلالها بعض النجوم التي سرعان ما كانت الغيوم الرمادية تبتلعها وتحول البستان الى ظلام من جديد،عملية الرصد والكشف استغرقت حوالي عشرون دقيقة أو يزيد كان ثلاثتهم ينتظرون الإشارة بالتقدم رن الهاتف النقال لفادي مد يده الى جيبه نظر الى الرقم المطبوع على الشاشة فتيقن من جبريل أن الطريق نظيفة ،خالية من القمامة،وهذه العبارات كثيرا ما يستعملونها للتمويه سار ثلاثتهم عبر الرواق بعد أن شعروا بالأمان ومن خلال الدرج الذي يرتفع عن الأرض اكثر من متر وهذا نمط البناء القديم في أزقة البلدة القديمة ولا ادري لماذا لا تلامس الأرض بداية الدرج ويبقى هذا الفراغ متروكا؟مروا عن سطح بناء قديم آيل للسقوط له قناطر يتخللها فتحات وثقوب كان سابقا حماما عاما من تراث البلد .. يدعى حمام القاضي ونزلوا الى البستان دخلوا الى الغرفة القديمة والتي كانت تفوح منها رائحة الرطوبة بعد أن تآكلت جدرانها وعفى عليها الزمن،استلقوا على الأرض كان الإعياء باديا على وجوههم وفرائضهم ترتجف من آثار المطر حاولوا النوم ألا أن الريح المتسلل عبر الباب المخلوع سرق النعاس من أعينهم ،فلا مجال إلا للكلمات والنكات والنوادر وتذكر الآخرين للقضاء على ما تبقى من زمن الليل الحافل بالمفاجآت وبينما هم على هذا الحال سمعوا المؤذن ينادي للصلاة خرج الشيخ إبراهيم يبحث عن وعاء علىه يجد فيه بقايا من ماء المطر كي يتوضأ ويصلي الفجر وبعد دقائق قليلة سمعوا صوت زخات من الرصاص ثم صراخ الشيخ إبراهيم خرج فادي من الغرفة حمل سلاحه اخذ يطلق النار في جميع الاتجاهات اتجه نحو الصوت وجد الشيخ ملقى على الأرض يصرخ من شدة الألم والدم ينزف من رجليه،كانت القوات الخاصة قد ضربت طوقا حول البستان فتسللت الى المنازل والأسطح المجاورة أجبرت أهلها على عدم الحراك والتزام الصمت ،اخذ فادي يسحب زميله المصاب ويصرخ نحن محاصرون ، تمكن فادي من إخراج الشيخ عبر بوابة صغيرة تؤدي الى حارة الشيخ مسلم، كان يركض به كالطير ،طرق باب أحد المنازل بعد أن شاهد في نافذتها أحد

المواطنين الذي استيقظ على صوت الرصاص،طلب منه أن ينزل ويفتح الباب ،نزل الرجل فتح باب منزله نظر إليه فادي بعينه التي امتزجت بالألم وقال له (خذ هالأمانة)سحب الرجل الشيخ الجريح كان ينزف من ركبته اليمنى وطلب من فادي الدخول والاختباء،لكنه خرج مسرعا ليعود الى هناك اخذ يبحث عن اقصر الطرق الموصلة الى الحوش رن جرس النقال وضعه على أذنه سمع صوت يامن يستفسر عنهم اخبره ما حصل للشيخ وان جبريل ومجدي محاصرون ولا يعلم ماذا جرى لهم وانه ذاهب لإنقاذهم وقد يلتقون أو لا....صرخ يامن بأعلى صوته(وين انتو)تردد جبريل في الإجابة فالطريق إليهم ليست آمنه فهو يعرف رفاقه جيدا فإذا اخبرهم لن يتركوهم وحدهم مهما كان الثمن ، وكانت آخر الكلمات التي خرجت من فمه (اكمل طريقي يا رفيق) اقفل الجوال كانت أصوات النيران تزداد حدتها استيقظ كل أهالي المدينة على سماعها .أدرك يامن أن الرفاق في خطر ايقظ أبو وطن الذي كان يغط في نوم عميق بعد ليلة قاسية قضاها في الجبال المحيطة في المدينة في مهمة أرسل إليها ،وما أن فتح عينيه سمع صوت الرصاص أدرك أن هناك اشتباك وان بعض المقاومين معرضون للخطر نظر في وجه يامن كان وجهه شاحبا تعلوه علامات القلق والارتباك ،بادره بالسؤال (مالك شو في احكي)اخبره يامن بالمكالمة التي أجراها مع فادي اصبح الجنون سيد الموقف ارتدى امجد حذاءه وحمل سلاحه وحاول أن يخرج امسك به يامن بعد أن أدرك ما يجري في خلده من أفكار لا تخرج من هنا فلم يحدد فادي مكان الاشتباك تريث قليلا حتى نستطلع الأمر فهذه ليست المرة الأولى التي يشتبكون بها مع الخنازير ،كان أزير الرصاص وصوت الانفجارات وأضواء القنابل المضيئة يحول ليل المدينة الى نهار وكان من الصعوبة على المرء أن يحدد مكان الاشتباك إلا القريبون من المنطقة المجاورة للاشتباك حاول يامن الاتصال اتصل مع جبريل لكن جواله مغلق كرر المحاولة حاول الاتصال مرات ومرات مع جبريل لكن دون جدوى ،اتصل بنايف ونادر والقذافي وغيرهم من المقاومين لكن محاولاته باءت بالفشل ، وقف الاثنان عند النافذة المطلة على البلدة

القديمة إلا أن الظلام الدامس وصدى صوت الرصاص وقوة الانفجارات
حالت دون تحديد مكان الاشتباك، عاد فادي من حيث أتى كان شغله
الشاغل جبريل ومجدي فلم يتردد بالمجازفة والمخاطرة بحياته تسلق
الجدار ونزل الى سطح المنزل انبطح على بطنه اخذ ينادي بصوت خافت
كي لا يسمعه أحد من الجنود زحف على بطنه ويديه الى الجهة الأخرى
من الغرفة سمع أنيناً تقدم نحوه بسرعة وجد جبريل منكفئا على وجهه في
آخر لحظات الحياة والى جانبه مجدي قد لفظ أنفاسه الأخيرة ضم جبريل
الى صدره وكان جسده يقطر دما همس في أذنه لا تمت يا رفيقي لا تمت
يا حبيبي نظر جبريل في عينيه وابتسم ثم اغمض عينيه أدرك فادي أن
جبريل قد استشهد حمل سلاحه بعد أن صرخ صرخة سمعها كل أهل
الحي الذين كانوا يختبؤن في منازلهم واخذ يطلق الرصاص ويرد على
مصادر النيران لكن نفدت حبات الرصاص وحانت ساعة الرحيل فلا
مجال للفرار والتراجع ،ترجل فادي بعد أن عاجله أحد القناصة برصاصة
في صدره وبعد ساعات كان يسمع فيها صوت النيران من حين الى آخر
بدأت الأخبار تتوالى كان أول خبر أذيع أن أربعة من كتائب أبو على
مصطفى سقطوا في الاشتباك آخذت الأخبار تتضارب من حين الى آخر
الى أن غادرت قوات الاحتلال المدينة وتأكد الناس من مغادرتهم ، خرج
الناس من مساكنهم اخذ الرجال والنساء والشباب حتى الأطفال يهيمون
على وجوههم في الحواري والأزقة مثل الأشباح وقد تملكهم الحزن
والأسى ،الكل منهم يريد معرفة هؤلاء الأبطال الذين ترجلوا في المعركة
,أخذت جموع الناس تتجه نحو المستشفى تجمع الآلاف في الساحة
الرئيسية كان من بين الجموع التي حضرت عشرات المطلوبين الذين
قدموا ليودعوا أحبتهم أخوة ورفاق دربهم يتقدمهم يامن وامجد ونادر
دخلوا من الباب المؤدي إلى ثلاجة المستشفى حيث وضعت الجثامين في
غرفة صغيرة موجودة في الطابق الأرضي تكاد أن تنفجر من شدة
الازدحام الشباب فوق بعضهم البعض الكل يريد أن يلقي النظرة الأخيرة
على هؤلاء العظماء شق الشباب طريقهم وسط هذا الزحام إلى أن وصلوا
باب الثلاجة طلبوا إلى أحد الشباب آن يخرج الحمالة كي يلقوا النظرة

الأخيرة عليهم وما أن اخرجوا أول جثة كانت لفادي وقد بدا عليها أثار التشويه والتعذيب سال أبو وطن عن جبريل وكان ممدا في أسفل الثلاجة وماان راىأبو وطن جبريل ضمهم إلى صدره وصرخ (إحنا وإياهم والزمن طويل).......

غدا سنطلق رصاص الفرح ....

حارة الياسمينة تفتح أبوابها من جديد جموع الناس تأتي لتقديم العزاء الرايات والأعلام وصور الشهداء تزين جدران الديوان ... كان جبريل وفادي يحظيان باحترام كبير في هذه المدينة المحاصرة حضرت عناصر المقاومة بكافة أطيافها لتقديم العزاء ... كان وقع الرحيل باديا على وجوههم ، كان فادي مهندس كتائب أبو علي مصطفى وجبريل رجل المهمات الخاصة وبفقدانهم خسارة كبيرة للجبهة الشعبية ... كان من بين من حضروا يامن وأبو وطن ونادر وهاني العقاد وقف يامن مخاطبا الجماهير الغفيرة التي كانت تتواجد في المكان ... الكل يستمع لما سيقوله مسؤول كتائب أبو علي مصطفى في فلسطين تحدث عن مناقب الشهيدين والصفات التي كانا يتصفان بها فكانت كلماته تعبر عن الألم والحزن الذي تركاه في نفوسهم وقال: نحن جئنا الى هنا لا لنرثي فادي وجبريل بل جئنا لنؤكد على النهج البطولي الذي رسمه لنا الشهداء وعمدوه بالدم ولنقول لهم إننا على العهد الذي تركتموه لنا ، وسيكون الرد قريبا ...أنهى يامن كلمته وخرج ورفاقه من الديوان رفضوا ان يطلقوا الرصاص قال أبو وطن : غدا سنطلق رصاص الفرح .

انقضت الأيام الثلاثة لاستقبال العزاء كان الناس ينتظرون رد الكتائب وخصوصا أن قوات الاحتلال شددت حصارها على المدينة وطائرات الاستطلاع تجوب السماء ليلا ونهارا ومئات الجنود منتشرين على طول الطرق الالتفافية والجبال والحقول المحيطة بها خوفا من تسلل المقاومين عدا عن حملات المداهمة التي كانت تقوم بها من حين الى آخر ، ولم تكن مدينة نابلس وحدها تتعرض لهذه الحملات فمدينة رفح وخان يونس وجنين طولكرم ورام الله والخليل ومعظم القرى كانت تتعرض للإجتياحات ، عشرات الشهداء من شيوخ وأطفال ونساء يرتقون الى العلا شهداء كل يوم إلا أن مدينة نابلس كان الاحتلال يشدد عليها الحصار لان معظم العمليات التي كانت تنفذ تخرج من مدينة نابلس حتى أن الدلائل كانت تشير ى أن هناك العديد من العمليات التي خرجت من المدن الأخرى كانت

تؤكد أن المواد التي تستخدم في التجهيز كانت تخرج من هذه المدينة لذلك كان الاحتلال يطلق عليها (عش الدبابير) .

يوم الخميس في اليوم السابع لاستشهاد فادي وجبريل ، كان امجد ويامن ونادر يتجولون في حارات البلدة القديمة ، الطقس بارد والسماء تنذر بهطول المطر ، كان مجدي يبحث عنهم ذهب الى منزل العمة علّه يجدهم هناك سألها عنهم فأجابت أنها لم ترهم منذ أن استشهد فادي وجبريل كان هاني يقطع الأخشاب ويشعل المنقل كي يتدفأوا ، خرج مجدي من المنزل اتصل بيامن اخبره انهم موجدون في فندق الياسمينه توجه الى هناك كان ثلاثتهم يجلسون في الجهة الشمالية للفندق في قاعة الاستقبال ، الصمت يخيم عليهم ، وما أن جلس مجدي بادره يامن قائلا: خبر يا رفيق ... شو آخر الأخبار؟

- اتصل سعيد وقال : الأمانة وصلت .
- شو رأيكم نروح عند العمة .. يمكن يجينا الخبر هناك قال يامن . فكرة جيدة اجاب ابو وطن ،توجهوا الى منزل العمة كان هاني قد انتهى من اعداد المنقل ، طرقوا باب المنزل فتحت العمة الباب عانقتهم ... انهمرت الدموع من عينيها تذكرت فادي وجبريل فمنذ استشهادهم لم يأتوا الى منزلها سوى مرة واحدة ، حضروا كي يواسوها ولكنهم رفضوا أن يقدموا يومها العزاء ... جلسوا حول المنقل كانت علامات الاضطراب والقلق بادية على وجوههم ... الصمت خيم عليهم ... نظرت العمة اليهم أخذت تتساءل في نفسها عن الأمر الذي يقلقهم ترددت في السؤال ألا إن الحالة التي يمرون فيها لا تطمئن وأخيرا تدخلت وقررت أن تقطع حاجز الصمت فسألتهم :
- خير ان شاء الله ، مالكم ؟
- ما في إشي يما رد عليها نادر .
- كيف ما في إشي وشايفكم مهمومين ، احكولي في إشي صاير معكم .
- بعدين يما ايتعرفي أجاب يامن .
- انتوا حرين على كل حال أحضر لكم العشاء ؟ بدأت العمة في تحضير الطعام، كانت عيونهم شاخصة في التلفاز قام نادر وذهب الى المطبخ بعد لهم فنجانا من القهوة وبعد الانتهاء منها عاد وقدمها لهم ، كان أبو

وطن ممسكا بجهاز التحكم بالتلفاز جلس نادر بالقرب من يامن ، اخذ أبو وطن يتنقل من محطة الى أخرى وعيونهم تتفحص الشاشة تبحث عن شيء يبدد صمتهم ...وتأتي العمة من حين الى آخر وهم ما زالوا على حالهم ... أدركت ان هناك شيئا يخفونه عنها فقالت في نفسها (يا خبر بفلوس بكرة ببلاش) ، وبعد ان انتهت من إعداد الطعام قام هاني ونادر لمساعدتها في تجهيز المائدة ، نادر يضع بعض الجرائد القديمة على الطاولة ومجدي وهاني يحضران أواني الطعام من المطبخ والعمة توزعها على المائدة ، وما ان انتهوا من إعداد المائدة ، قالت العمة :

- يالله يما كلوا واتركوا التلفزيون .
- كمان شوي بنوكل رد عليها أبو وطن .
- خير ان شاء الله ... ليش خليتوني اطبخ ، بعدين الأكل ببرد ، بدكم أزعل . وما ان انتهت من كلامها ظهر في اسفل شاشة التلفاز شريط باللون الأحمر كتب عليه خبر عاجل (عملية استشهادية في مدينة نتانيا استهدفت محطة للجنود وسقوط عدد كبير من الجنود بين قتيل وجريح) وثبوا من أماكنهم وصيحات الفرح أخذت تملأ المكان بددت حالة الصمت التي عاشوهافي الاسبوع الماضي، وبحركة عفوية وثبوا على العمة يقبلونها بحرارة ودموع الفرح تنهال من عيونهم وقالوا لها :
- اليوم احنا بنهنيك ، اليوم رايحين نطلق رصاص الفرح . زغردت العمة ولم تتنبه ان أحدهم ارتطم بالطاولة وسكب الطعام على الأرض . خرجوا من المنزل والفرحة تعلوا وجوههم اخذوا يطلقون الرصاص ويعلنون عبر مكبرات الصوت مسؤولية كتائب أبو علي مصطفى عن العملية الفدائية

وفي اليوم التالي وزعت الكتائب بيانا تعلن فيه اسم منفذ العملية الشهيد البطل ابن قرية بيت فوريك (سائر حنني) وتوزع شريطا تسجيليا لمنفذ العملية على وكالات الأنباء ، كان وقع العملية كبيرا على الكتائب واهل المدينة و حكومة شارون. أولاً :لأنها جاءت في فترة قياسية بعد استشهاد فادى وجبريل وثانيا: أنها المرة الثانية التي تقوم بها كتائب أبو علي مصطفى بعملية استشهادية داخل الخط الأخضر وخصوصا ان العملية استهدفت محطة للجنود بحيث لا تترك ذريعة لحكومة الاحتلال بتوجيه

تهمة الإرهاب للكتائب والمقاومة لأن معظم العمليات التي كانت تنفذ تستهدف المدنين كما كانت تدعي سلطات الاحتلال لاثارة الراي العام العالمي ضد عمليات المقاومة وتبرير الجراءم التي تقوم بها ليل نهار والأمر الثالث أنها جاءت في ظل الإجراءات المشددة والحصار على المدينة والاستنفار في صفوف الجيش داخل المدن .

في المعركة نشتم رائحة البارود والدخان والموت ،والبطولة تظهر جلية في غمار المعركة ، فتلتحم صور المقاومة بلون الأرض واشجار الليمون والبرتقال فتظهر صورها ومعالمها بعد الانتهاء ...

بدأ الشتاء يلملم امتعته فحزم غيومه وبرده وتقلباته وصقيعه وثلجه وغادر المنطقة الى بلاد اخرى تحلم بقدوم المطر بعد ان جفت ينابيعها وتشققت تربتهاويبست اشجارها ورفعت ايديها ضارعة للسماء بقدوم المطر ، وعلى العكس من ذلك فقد كان المقاومون في هذه المدينة المحاصرة يتمنون ان لايعود فصل الشتاء لما يحمله لهم من متاعب وصعوبة في التنقل والنوم والاختفاء ، لذلك كانوا يحلمون بفصل ربيعي وصيفي ففيه يستطيع الواحد منهم ان يفترش الارض ويلتحف السماء دون عناء ومشقة او احراج هذا او ذاك ، وجاء فصل الربيع بما يحمله من خير للارض والفلاحين والمنكوبين في جميع انحاء الوطن ، الا ان هذه المدينة لم تكن تدخل في حسابات الفلك وتعاقب الليل والنهار والفصول الاربعة وكأن القدر اختار لها كوكبا تسكن عليه يحدد لها منحى اخر في الحياة يرسم معالمها حزنها وفرحها وطريقتة عيشها في الحياة ، لذلك لم تكن تلك الليلة تختلف كثيرا عن ليالي المدينة الجاثمة بين عيبال وجرزيم والتي يتربع على صدرها جنود الاحتلال في المعسكرات المقامة عليها منذ زمن بعيد ، وان شابهت في لياليها باقي المدن والقرى الممتدة على سطح الكرة الارضية فهي مدينة يلفها الظلام بعد الغروب وتظهر نجومها على صدر السماء ويبدو القمر جميلا بمراحل نموه هلالا ومحاقا وبدرا ،الا ان الحزن يخيم عليها ليلا ونهارا ، صباحا ومساء ... تجد شوارعها تكتظ بالناس الذين عشقوها ... وتشبثوا بها ... بجدرانها بازقتها باسواقها بحماماتها القديمة ، باقواسها وحاراتها ببواباتها بكل ما هو نابض بالحياة منذ القدم ، وفجأة تجدها خالية حزينة ... فللقدر معها حديث اخر ،تجده يطلق رصاصه على ابنائها كيفما شاء ، فلا يترك مجالا للفرح دون الشعور بالالم... تتوقع منه كل شيء ، سيارة تقصف من السماء او صاروخ يتسلل عبرنوافذ المنزل ليحصد الارواح فلا يميز بين صغير أو كبير بين امرأة ترضع طفلها او شيخ يتوضأ للصلاة ، او مجموعة تتربص لتلقي القبض

على هذا او تغتال ذاك . كل شيء متوقع من الموت وكل شيء يحمله القدر من المفاجات الحزينة .
في تلك الليلة الحزيرانية لم نكن نتوقع من الموت ما حمله ذلك الخبر بعد صلاة العصر ... كانت الجيبات العسكرية ومجنزراته تجوب شوارع المدينة ، تنذر بشؤم القدر ...طائرات الاستطلاع والتي اطلق عليها اهل المدينة (الزنانة) تصم الاذان ، الكل مشغول بالتقاط خبر يتسرب من اهل البلدة القديمة ، ثمانية ايام والناس يندبون حظهم المتعثر تحت وطأة الحصار والقذائف وصرخات المهووسين الذين جاؤا يحملون الحقد والرعب والدمار ... ، الانفجارات اصوات القذائف والمدافع الرشاشة ، الجنود يفتحون ممرات عبر جدران المنازل المتلاصقة ومكبرات الصوت تطلب من المقاومين عبثا الاستسلام واخرون يبحثون عن انفاق تحت الارض ، واطفال تصرخ ... وشيوخ يعلو صوتها ونساء تولول بعد ان جمعتهم قوات الاحتلال في غرفة واحدة بعد ان عاثوا فسادا في محتويات المنزل ، فلم تسلم منهم خزانة الملابس وحقائب المدارس حتى الصور المعلقة على الجدران وغرف النوم والاثاث والمطبخ ، كانت سيارات الاسعاف تقف بعيدا لا يسمح لها بالاقتراب ، نقص بالغذاء والدواء وحليب الاطفال وانقطاع التيار الكهربائي كل ذلك كان ينسج خيوط الالم والحزن .
لكن هذا هو القاتل الذي يتسلل مع الموت بمحاذاة الجدران والازقة ، تعرفه المدينة جيدا تستطيع ان تميزه بين الجموع العابرة لفرحها وحزنها ، لقد كانت رغم حزنها تختصر في حضورها الصامت العاشق للحرية صور الشهداء ، وكل القضايا التي امنت بها منذ ان وطأت عليها قدم كنعان ، فتوقف عند نظراتها مشاهد الموت والدمار ويفصلها عن الزمن المحاذي للمدن الاخرى والعواصم تسمية جديدة للموت الموت قهرا ، او الموت فرحا او الموت حزنا ... لكن عندما يصبح مشهد الموت مألوفا تستنهض هذه المدينة من الموت الحياة فتعود ثانية اكثر عنفوانا واشد عزيمة واصرارا في وجه العاصفة .
مشاهد الموت في تلك الساعة من الثالث والعشرين من حزيران كانت تتردد في كل مكان في الاحياء والمنازل والمقاهي وفي القرى المجاورة

... الشيوخ والشباب النساء والرجال ، الكل يردد الاسماء والكل منهم يتخيل مشاهد الجنازة ، لكن لم تتحدد الاسماء بعد ... فالاسماء كثيرة ولكن القدر هو الذي يحددها ، يحدد الاسماء والعناوين وشكل البوستر والكلمات التي ستكتب عليه وعدد اليافطات ... التي ستسير في موكب الجنازة والهتافات الغاضبة ولفافات الكفن قد تكون اعلام فلسطينية او حمراء او خضراء ، لكن كل ما في الامر ان المشهد اصبح مالوفا ... فالمدينة هي التي تفرح وتحزن وهي التي تتحدى ...واخيرا ينجلي المشهد فتظهر على شاشات الحياة بقع الدم ... تتناثر هنا وهناك ...وتاخذ مكبرات الصوت من فوق الماذن تستنجد بالاهالي خارج حدود البلدة القديمة لفك الحصار عن بعض المحاصرين وتطلب منهم الخروج من منازلهم والتهليل والتكبير ، وتتعالى الاصوات ويخرج الاهالي لسد الطرقات واعاقة حركة المهووسين ... الاطارات المشتعلة في كل مكان الشبان يرشقون الحجارة وتتوالى البيانات عبر مكبرات المساجد، وتلتهب الحناجر وتتعالى الاصوات ويضع القدر حمله من جديد وتخرج المدينة عن صمتها مجزرة جديدة ، شهداء جدد ... اربعة ...خمسة ...ستة وتبدأ فوازير الاسماء فلان علان ، ويخرج الناس شبه اشباح تسير في الشوارع يعلو وجوهها الحزن والغضب ....والمدينة تعود من جديد لتحمل ابناءها على اكتافها تبحث في بقاع الارض عن تفسير لجرائم الانسانية ... وتزحف قوافل البشر الى مستشفى رفيديا وتبدأ الاسماء بالظهور ويعلو صراخ الناس وسيارات الاسعاف تنقل الشهداء ، كان اول القافلة الشهيد نضال الواوي ،وبعد لحظات الشهيد سامر عكوب ثم الشيخ ابراهيم وجدي القدومي عمر مسمار وجعفر المصري ، وبدات التكهنات والشائعات تدور حول تواجد قائد كتائب الاقصى نايف ابو شرخ بين الشهداء ، الجموع تتدافع على سيارات الاسعاف للتحقق من صحة الخبر ، الاشاعات تنتشر هناك من ادعى ان نايف كان موجودا بينهم واخرون اكدوا انه نجا من الموت ... وظل الناس على هذه الحال بين مصدق للنبأ ومكذب ... اخيرا تاتي سيارة الاسعاف تعلن عبر مكبر الصوت ان فارس كتائب الاقصى قد حضر ، وتتعالى الاصوات من جديد وترتفع وتيرة الغضب المنادية بالثأر وتتدافع

الجموع كامواج البحر لرؤية نايف ... (نايف كان في الاربعين من عمره قضى ثلث حياته في سجون الاحتلال افرج عنه بعد التوقيع على اتفاقية وسلو عمل في جهاز المخابرات الفلسطيني و بعد اندلاع انتفاضة الأقصى في عام الفين أسس كتائب شهداء الاقصى و اصبح مطلوبا منذ ذلك الوقت كان يشكل حالة احترام بين المطلوبين من كل فصائل المقاومة وسائل الاعلام ، مراسلو وكالات الانباء الكل منهم يريد ان يلتقط صورة الشهيد ... كان الجسد مسجى على حمالة الاسعاف ولم يكن عليه علامات رصاص ، وبعد ان ادخل للتشخيص في غرفة الطوارئ اجمع الاطباء ان الاحتلال القى عليهم غازا ساما داخل النفق ادى الى اختناقهم ولم ينج من المجزرة الا اثنان كانوا خارج مخاض القدر ... وليشهدا فيما بعد على جرائم الاحتلال ...

في اليوم التالي استيقظت المدينة الحزينة بحجارتها وحاراتها وشوارعها اهلها وناسها بشيوخها ورجالها شبابها واطفالها ليحملوا ابناءهم في عرس جنائزي عظيم ... عرس الشهداء كما يطلق عليه اهلها ... ساحات المستشفى الطرق المؤدية اليه لم تعد قادرة على استيعاب هذه الامواج التي باتت تعبر عن مشاعرها ، وتخرج قافلة الشهداء محمولة على الاكتاف وتتعالى صيحات الغضب والاصوات المطالبة بالانتقام تتقدمهم كتائب المقاومة واعلام الفصائل الوطنية ومكبرات الصوت ويسير الموكب نحو ميدان الشهداء امواج البشر تتدفق من كل اتجاه ، واخيرا يصل الموكب تعلوه صيحات الكتائب فهذا الموكب يختلف عن باقي المواكب السابقة فالفرسان الذين ترجلوا في هذه المجزرة ينتمون لكافة اطياف المقاومة وحدتهم البندقية والدم الذي سال بحجم الوطن ،والاحلام المغروسة على بوابات القدس . تقدم الخطباء ليفتحوا النار من جديد ويدفعوا عجلة الانتقام محافظين على دماء الشهداء والتي رسموا بها حدود الوطن وتنتهي المراسم وتتوزع الجثامين على المقابر ، وتتوالى الوفود لتقديم التهاني بالشهداء ، ولكي تستوعب المدينة الوفود فتحت الكتائب اكبر الساحات في المدينة لاستقبال هذا الكم الهائل من الناس ...وتسير عجلة الحياة من جديد يحمل القدر في ذاكرته صور الشهداء ، وتزداد الكتائب عزيمة وقوة

واصرارا على احداث اكبر حالة من توازن الرعب في قلب الكيان الصهيوني الذي بات يترنح تحت ضربات المقاومة ، فمنذ ان اعلن عن قيام هذا الكيان على ارض فلسطين لم يشهد حالة الاستنفار والانهيار التي احدثته الانتفاضة في تاريخ الصراع فقد وصلت عمليات المقاومة الى جميع مناطق ومدن فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ والتي كان يعتبرها العدو الصهيوني مدنا امنة فقد استطاعت المقاومه زرع بذور الرعب في قلب المجتمع الاسرائيلي فلم تسلم الفنادق و المطاعم و الاسواق التجارية و محطات الباصات الاوصلت اليه المقاومة حتى الموانئ والشواطىء مما جعل احد الصهاينه يصرخ على شاشات التلفاز (لا يوجد مكان امن في هذا البلد لقد وصلوا الى شواطئنا وباصاتنا واسواقنا ومطاعمنا ومستوطناتنا فلم يبقى الاغرف نومنا) هذه الكلمات كانت تعبر عن حالة الفزع التي وصل اليه الشارع الاسرائيلي .والخسائر الفادحة بقطاع السياحة وقطاع النقل وخصوصا الباصات التي تعرضت للعديد من الهجمات ، وكذلك الهجرة المعاكسة نتيجة للذعر وارتفاع حالة البطالة وانخفاض الدخل.

وتتقارب عقارب الزمن من جديد ثلاثة عشر يوما فقط من استشهاد نايف ورفاقه تستيقظ المدينة على اصوات المدافع وهدير الطائرات في تلك الفترة الزمنية الممتدة ما بين اواخر شهر حزيران والاسبوع الاول من تموز كان يامن وابو وطن يتنقلا في ثنايا هذه المدينة الحزينة ، والتي اصبحت عاصمة للفقراء والثوار من كل ارجاء الوطن .... كانت علامات الحزن والالم بادية على وجوههم فقد كانت تربطهم بنايف علاقة مودة واحترام تلك العلاقة تركت اثرا كبيرا على كل من تعامل معهم سواء من عناصر المقاومة او من الاهالي الذين كانوا يلجأون اليهم في حل الخلافات والنزاعات في ظل غياب القانون .... والتي كانت اثارها واضحة خلال سني الانتفاضة .... في هذه الفترة كثف الاحتلال من مداهمة المدينة لتضييق الخناق على المقاومة وازدادت حركة وعيون الاحتلال من العملاء في مراقبة المطلوبين وكذلك طائرات الاستطلاع التي كثفت من نشاطها ليلا ونهارا وخصوصا ان قيادة الاحتلال اعتبرت المجزرة انجازا

كبيرا للاجهزة الامنية ، وعلى العكس من ذلك كان المقاومون حريصين في تنقلاتهم من مكان الى اخر ... يظهرون في النهار يلتقون بعضهم البعض وتبدأ أثارهم بالتلاشي عند غروب الشمس ... لتبدا عمليات المداهمة من جديد... وفي احد الايام جاء والد (ابووطن) يبحث عنه ليطمئن عليه ...في تلك الليلة من ذلك النهار حضر الاحتلال الى القرية وقام بتطويق المنزل واقتحامه بعد منتصف الليل، ايقظوا الاطفال والنساء اعتدوا عليهم بالضرب والشتائم ، اخرجوهم من المنزل وبدأوا يفتشون الغرف غرفة غرفة يدمرون كل شيء تقع عليه ايديهم حطموا النوافذ مزقوا الفراش والمقاعد ، خلطوا الزيت بالطحين والارز بالسكر ،حتى علاف الحيوانات لم تسلم من حقدهم وكراهيتهم قذفوا بها على الارض ، وفي هذه الاثناء كان ضابط المخابرات يستجوب الاطفال والنساء مستفسرا عن امجد اذا كان يأتي الى المنزل ومتى اخر مرة حضر فيها الى القرية ، ستمرت عملية المداهمة حتى طلوع الفجر ، عندها نادى ضابط لمخابرات على والد امجد وقال له :(اسمع مليح انا بعرف انه امجد بيجي جون احسن الك واله انه ايسلم حاله والا بجيبلك اياه ميت ، انا اللي قتلت يف وجماعته ، شو رأيك ؟)

- اسمع مني هالنصيحة احنا ناس ما بنخاف من الموت واعمل اللي بدك اياه . امتعض الضابط من هذه الاجابة التي كان يتوقعها فقد سمعها من قبل من والد يامن وفادي وجبريل وزوجة نايف وسامر عكوب والكثير الكثير من ذوي المطلوبين وقال : (انت حر راح اجيبلك اياه ميت). نظر اليه والد امجد وقال : بيكون انتهى عمره لكن اعلى ما بخيلك اركب . تمتم الضابط قائلا:

(هاي المرة فتشنا بس المرة الجاي راح انسف البيت)

سار والد امجد في ازقة البلدة القديمة يبحث عنه في الاماكن التي كان يلقاه فيها ، كان يسير ببطء امام المحلات التي بدأت تفتح ابوابها يتفحص الوجوه عله يهتدي لشخص يقوده الى امجد وبالصدفة التقى نادر وكان اول من نزل من المكان الذي كان يلجأ اليه تقدم منه سلم عليه وعانقه بحرارة ، عرف نادر ان والد امجد جاء يبحث عنه كانت

الساعة العاشرة والنصف وفي هذا الوقت تقريبا يبدا المقاومون النزول من اماكن تواجدهم وفتح هواتفهم النقالة ، اصطحب نادر والد امجد الى مطعم قريب بعد ان اتصل بامجد وابلغه ان والده جاء يبحث عنه، وبعد قليل حضر امجد تعانق الاثنان ... كانت الدموع تنهمر من عيني الشيخ نظر امجد في عيني والده ... حاول ان يخفف من هذه الدموع التي كانت تفيض شوقا وحنانا ... و اختلطت فيها مشاعر الابوة بالخوف ... فلم يستطع ان يكبتها او يخفيها ، فهذا الشيخ كانت خيوط الشمس واشعتها قد رسمت على وجهه معالم الارض بتضاريسها جبالها وسهولها ، كان مجبولا بحبها فمنذ صغره وهو يعمل على فلاحتها وتربية المواشي فاشتد ساعده وازداد صلابة ، فعمل على تربية ابنائه على حبها والعمل لاجلها ، لم يستطع ان يتغلب على مشاعره الفطرية التي جبلت عليها الانسانية من حب وفرح والم وحزن ، ادرك امجد ما تعبر عنه هذه القطرات المتساقطه على خديه كحبات المطر فحاول ان يهدىء من روعه وان يجفف دموعه وقال : مالك يابا انا عارف انك خايف علينا ، انت اقوى من هيك .

- كيف بدك اياني ما اخاف عليكم والخنازير كل يوم وكل لحظة بدخلوا، معظم الشباب استشهدت ، الله اعلم انا وامك ما بيجيلنا النوم طول الليل واحنا بنفكر فيكم .
- يابا اكم مرة قلتلك اذا شوفت السماء ابتضوي وابترعد اوفي ٢٠٠جب او١٠٠دبابة او٢٠٠٠جندي اعرف انه ابو وطن في المعركة ما تخاف علي انا قلتلك مش راح اموت موت ، او بوصيك هالوصية اذا استشهدت حسس على صدري فاذا شفت الرصاص اخترق صدري خلي امي تزغرد ، اما اذا شفت الرصاص اخترق ظهري ارجوك يابا ما تخلي امي تبكي علي وخليها تقول عني جبان ونذل .
- انا بعرف انك رجل بس انا خايف عليكم من هواية الغدر ومن هالجواسيس .
- ما تخاف علينا مش راح انموت موت ... واحنا قدهم .

ضحك والد امجد بعد ان جفف دموعه وقال : الله يحماكم . كان نادر جالسا يستمع الى حوارهم وبدت عليه علامات الاعجاب والحزن ، ثم بادر ابو الوطن متهكما قائلا : مين شاف احبابه نسي رفاقه . تنبه امجد لوجود نادر بعد ان اخذته لحظات العاطفة التي جمعته بوالده وقال : حقق علي يا رفيق ما سلمتش عليك . جلس ثلاثتهم حول الطاولة ، تقدم منهم صاحب المطعم وحياهم وحمد الله على سلامتهم ، ثم سالهم : شو حابين اجيبلكم ؟

. يعني شو في عندك غير الحمص والفول ؟ عندك كباب ولا فراريج ، رد عليه نادر مازحا .

كان صاحب المطعم يعرف ابو وطن ونادر والكثير من المطلوبين فهو احد العناوين التي يلتقي فيها المطلوبون مع اقاربهم واصدقائهم خصوصا اؤلئك القادمين من خارج المدينة ، ابتسم وقال : ولو يا نادر كرمالك وكرمال ابو وطن ووالد ابو وطن اطلبوا اللي بدكم اياه . شكرا الك بس حمص وفول واكم سيخ فلافل رد عليه ابو وطن ضحكوا جميعهم ثم احضر لهم الطعام ، اخذ والد امجد يحدثهم عن تلك الليلة التي مروا بها وعن الحديث الذي دار بينه وبين ضابط المخابرات ، والمعاناة التي تلقاها من جنود الاحتلال على نقطة التفتيش حيث احتجزوه لاكثر من ثلاث ساعات ، نظر ابو وطن لعيني والده وقال : وحياتك اول مايموت الكلب اللي ما خلاكم اتناموا . انهوا طعامهم ثم قام نادر فدفع ثمن الطعام بعد ان اصر صاحب المطعم على ان لاياخذ ثمن الاكل احتراما لوالد امجد . خرجوا من المطعم ثم ودع امجد والده بعد ان عانقه وطلب منه ان يسلم على والدته وكل من يسأل عنه ، وكانت هذه المر ة الاخيرة التي يلتقي بها الوالد ابنه .

لم يكن هناك متسع من الوقت ، فليس هناك خيار ... فاما ان تلملم جراحك وتمضي بها وتقف فيها عند حدود القدر فتبقي يدك على الزناد حتى في لحظات النوم ... واما ان تختفي عن الانظار كما فعل الاخرون او تجلس في حلقات التنظير تنتظر قطف الثمار ، تتغنى ببطولات الاخرين واحيانا تنسبها لنفسك بعد ان ترجل اصحابها واصبحوا في ذاكرة الشهادة ، فلا يوجد من يحاسبك او يشكك في صدق ما تدعي كما يقول المثل (الفعل

لابو زيد والصيت لحمد) . بعد المجزرة التي استشهد فيها نايف ورفاقه بثلاثة ايام اختفى يامن عن الانظار لعدة ايام كان فيها يعد للانتقام للدماء التي سالت ولم يبق منها سوى صور فردية لاصحابها كتب عليها اسماءهم والقابهم معلقة على جدران المدينة والمحلات ، يقف امامها المارة فمنهم من يقرأ فاتحة الختام ، ومنهم من ينتظر هطول المطر لتنمو السنابل من جديد ... لا يوجد احد يعلم مكان تواجده الا امجد الذي كان يبحث عن شخص تنطبق عليه علامات الرجولة والشجاعة والاستشهاد ، واخيرا وقع الاختيار على شاب يدعى (محمود) قاموا بتجهيزه وتدريبه وتحديد المنطقة المنوي استهدافها ، واجراء الاتصالات لتأمين نقله الى مدينة القدس على ان تكون العملية موجهة ضد محطة لتجمع جنود الاحتلال . خرج محمود من التلال المجاورة للمدينة تفاديا للمرور من حاجز حواره ثم انتقل بوساطة سيارة كانت تنتظره عند احدى القرى المجاورة لتنقله الى مدينة رام الله ، وما ان وصل محمود المدينة قام بتسليم نفسه لاجهزة السلطة الفلسطينية ، كان وقع فشل العملية ثقيلا على يامن ... فهل لعب القدر والصدفة للحيلولة دون تنفيذها حيث كان يرى فيها يامن وفاء لنايف ورفاقه من ابناء الكتائب .

في اليوم الخامس من تموز ظهر يامن في شوارع وحارات البلدة القديمة التقى امجد ونادر وهاني وعماد وصالح وعبدالله والقذافي كان الحديث يدور على التنسيق بين كتائب المقاومة وتحسين اداء عملها في الايام القادمة ، وبعد هذا اللقاء توجه هاني ويامن وامجد ونادر الى بيت العمة ، التي كانت اشتاقت لهم كثيرا عانقتهم احتضنتهم والدموع تتساقط من عينيها ، جلس يامن على الاريكة التي اعتاد ان يجلس عليها ... كان مضطربا لم يكن مصدقا لما حدث مع محمود ، فهذه المرة الاولى رغم السرية التامة التي كانوا يحيطون بها انفسهم في مثل هذه العمليات يتراجع فيها عن الهدف .... نظر هاني في وجه يامن كان شارد الذهن غارقا في التفكير ما به يا ترى ؟ ليس كعادته لم يكن يعلم شيئا عن العملية .

- شو مالك يا رفيق ؟
- مش عارف اللي صار , اسال ابو وطن ...

ممكن اسانا الاختيار ... اجاب ابو وطن ...

قبل ما نحكم عليه لازم نعرف الظروف اللي مر فيها ... قد يكون السائق صالح وقد يكون خاف ... على كل حال خيرها بغيرها . كان نادر يستمع الى الحوار الدائر بينهم , عرف من خلال الحديث ان يامن وامجد كانا يعدان لعملية كبيره في القدس انتقاما للمجزرة التي ارتكبت والتي كان لها وقعا كبيرا في نفوس عناصر المقاومة والمدينة بأسرها ... ادرك نادر حجم الخطر القادم بعد فشل العملية وخصوصا ان السلطة الفلسطينية اعلنت عن احباط اكثر من عملية ضد اهداف اسرائيلية ... وقد يكون الاحتلال قد علم بالاسماء من خلال التنسيق الامني او من خلال تداول الاسماء , اذن الخطر قائم وسنكون في كتائب ابو علي مصطفى المستهدفين ، لازم نحتاط ونحذر ملاحقة الجواسيس , قال نادر .

- اللي ابتحكي في صحيح ، لازم انغير اماكن النوم ونخفف من تواجدنا في البلة القديمة . تدخلت العمة بالحديث الدائر بينهم وكانت اثار الدموع بادية على وجنتيها فقالت : الله يحميكم ويبعد شرهم عنكم ، فعلا لازم تكونوا صاحيين ... ابديش افقدكم بكفي اللي صار . ثم قامت من مجلسها وذهبت تحضر لهم الطعام . شعر يامن بحاجة للاستحمام طلب من العمة ان تحضر له الملابس ، دخل الى الحمام مكث فيه طويلا فالماء البارد لا يغسل الجسد فقط بل يزيل اثار التعب وبعد ان انتهى كانت العمة قد انتهت من تحضير المائدة ، جلسوا حولها ، وكعادتها اخذت توزع عليهم الطعام وتطلق كلماتها التي اعتادوا على سماعها ، صحتين وعافية كلوا الله يحماكم او مايحرمني منكم ، الله لايحرمنا منك يما ولا من هالاكل اجابها نادر .

- انا خايف انه يكون العشاء الاخير ، اوبعدها ما انشوفك ، ايصير فينا زي المسيح بعد ما اتعشى صلبوه ، قال ابو وطن مازحا .

- بس احنا اربعة والمسيح كان معاه ١٣واحد بس واحد منهم جاسوس رد عليه يامن . ضحكوا جميعهم الا العمة التي كانت منهمكة في توزيع

الطعام واعداد الشاي واحضار الماء ، في هذه الاثناء دخل وجدي كان مضطربا ... ساله يامن : خير يا رفيق مالك ؟ في اشي ؟
- عدد كبير من الجيبات نزلت من الطور وتوقفت عند راس العين ، وسمعت انهم دخلوا من عند معسكر حواره وفي هناك اكثر من زنانة في السماء .
- شو في اشي جديد ... جبلك كرسي وشارك اخوتك في الطعام ردت عليه العمة .
جلس وجدي الى جانب يامن ، اخذ يتناول الطعام وكعادته اخذ يطلق النكات ، يسلموا اديك يما والله هالاكل لو اكل منه المسيح ما انصلب ، مالكم عالمسيح سالت العمة ؟ يما المسيح كان مطارد من قبل اليهود ،واحنا اليوم مطاردين منهم ،احنا واياه (في الهوا ء سواء) .
انتهوا من تناول الطعام ، دخلوا الى الغرفة المجاورة ثم خلدوا للنوم بعد ان طلب من العمة ايقاظهم بعد صلاة المغرب ، خرجت العمة من البيت لزيارة منزل حماتها على بعد قليل من منزلها حتى لا ياتي احد لزيارتها وعند المساء عادت الى المنزل اعدت لهم القهوة ثم ايقظتهم ، شربوا القهوة ثم استاذنوها بالخروج .
- مش رايحين انودعك وارجوك ما تبكي قال لها ابو وطن ثم خرجوا ولحقت بهم الى باب المنزل وهي توصيهم وتدعو لهم . توقف امجد ويامن ونادر وهاني ومجدي امام المدخل المؤدي الى الخان تحدثوا قليلا ثم طلب يامن من هاني ونادر ومجدي ان يكونوا حذرين الليلة وخاصة ان طائرات الاستطلاع ما زالت تجوب اجواء المدينة ، كان يحرص الا يناموا مع بعضهم البعض في مكان واحد بعد استشهاد فادي وجبريل، ودعهم شعر نادر بحرارة الوداع كانت كلماته الاخيرة تدل وكأن شيئا ما سيحدث،
- ديروا بالكم خليكم صاحيين يا رفاق . حاول نادر جاهدا االذهاب معهم الا ان يامن اصر الا يبقوا معا . سار نادر وهاني ومجدي باتجاه خان التجار وذهب امجد ويامن باتجاه حارة الياسمينه اتصل يامن بجاسر تحادثا قليلا ...
- وينك ...

.بي هالوطن ..
.معاك الصغيرة ولا الكبيره..
.طبعا الصغيرة ....
.شو رأيك ؟ غيرها ...
.وين اجيلكم ؟
.عند الدرج ...
.نصف ساعة وبكون عندكم
اتصل جاسر بطارق يسأل عنه حتى يغير السيارة الا ان طارق كان بعيدا عن المدينة فقد ذهب لزيارة خالته في القرية ، وترك سيارته عند احد الاصدقاء لم يتمكن جاسر من احضارها لان المفاتيح كانت مع طارق . وصل جاسر الى المكان المتفق عليه فاتصل بيامن ، وطلب منه ان يركن السيارة بالقرب من مدرسة جمال عبد الناصر ، كانت الساعة العاشرة توجه جاسر باتجاه المدرسة ، توقف للحظات واذا بيامن قادم من الطريق المودية الى ديوان الياسمينه ، فتح باب السيارة الخلفي وصعد اليها .
. كيفك يا جاسر ليه ماغيرت السيارة ؟ اخبره بما جرى مع طارق بخصوص السيارة الكبيرة ، طلب منه يامن الذهاب الى طريق الفرن . توقف جاسر بالقرب من مدرسة الفاطمية ظهر امجد ففتح له يامن الباب وجلس ابووطن بجانبه ، على وين ان شاء الله ؟ على القريبه ، كانت الشوارع خالية من حركة السير ، سار جاسر باتجاه شارع الجامعة وتعمد اطفاء مصابيح السيارة مهتديا بمصابيح الطريق ، كان صوت الزنانة يصم الاذان وينذر بالشوم ، ظلوا صامتين طوال الطريق وما ان وصلوا منطقة القصر نزل امجد ويامن ودعهم جاسر ثم واصلوا طريقهم باتجاه حي سكني محاذي لقطعة ارض كبيرة مزروعة باشجار الزيتون ، وما ان وصلوا الى المكان الذي اعتادوا ان يجلسو فيه فوجئ يامن و ابو الوطن ان هناك من مزق حاجاتهم وعبث بها ادركوا ان المكان اصبح معروفا قد يكون الاحتلال او احد اعوانه ، لذا قرروا المبيت في مكان اخر . قال امجد : شو رأيك انروح اننام في الاسفنجه ؟ اجاب يامن زي ما بدك . نزل الاثنان باتجاه الشارع الرئيس الذي يربط

حي رفيديا بالمدينه كانت بعض المحلات ما زالت ابوابها مفتوحة وهناك بعض المارة وحركة السير ، سارا باتجاه الشارع المؤدي الى جامع السلام كانت هذه المرة الاولى التي يتجولان فيها خارج البلدة القديمة ويقطعان هذه المسافة الطويلة مشيا على الاقدام وعندما وصلا الى تقاطع الطرق المحاذي للجامع باتجاهاته الاربعة قطع امجد ويامن الشارع بسرعة الى الطريق المؤدي لشارع السكة ومن ثم الى المكان الذي كانوا يلجأون اليه وهو بيت قديم من الاسمنت يلتصق جداره الخلفي بسور يرتفع حوالي عشرين مترا بجانب بناية تتألف من سبعة طوابق ويفصل الجدار الارض المقام عليها البيت القديم والبناية بستان كبير مزروع باشجار اللوز والتين والزيتون يصل الى شارع حيفا ومنه الى مخيم العين وبجانب هذا البستان درج طويل يصل شارع حيفا بشارع السكة وما ان وصلا الى البناية توقف يامن وامجد تأكدا من خلو الطريق من المارة ، ثم دخلا بسرعة الى المبنى ونزلا على الدرج المؤدي الى الطوابق ألارضية ومن ثم الى البستان ، وجلسا على البسطة الاخيرة للدرج ليستريحا قليلا. نظر امجد الى الساعه كانت تشير الثانية عشرة الا ربعا تقريبا ، وطائرات الاستطلاع (الزنانة) مازالت تجوب سماء المدينة والناس في منازلهم يترقبون شيئا قد يحدث في أي لحظة من اللحظات ، مد يده الى هاتفه اتصل باحد الرفاق الذي اعتاد الاتصال به لمعرفة تحركات جنود الاحتلال ... ها يا وطن ... شوفي عندك ؟ بس اشوي وبرجعلك .... صعد جهاد سطح المنزل المطل على المنطقة الغربية للمدينة شاهد عدد كبير من الجيبات والاليات العسكرية قادمة من معسكر دير شرف توقفت عند حاجز (بيت ايبا) كان جهاد ممسكا بهاتفه فاتصل بامجد وقال : اسمع عدد كبير من اسراب الجراد توقفت عند الحاجز ، ويبدو انه في مصيبه .

- قديش العدد ؟
- بوكل الاخضر واليابس .
- خليك معي .. حدد اتجاهه . طلب جهاد منه ان يغلق الهاتف حتى يستطيع ان يحدد اتجاه الجراد وبعد عشر دقائق تحركت الاليات

والجيبات بسرعة مذهلة كانت تضرب الارض بعجلاتها تنذر بكل الاحتمالات التي شهدتها المدينة خلال الاجتياحات لكن يبقى السؤال من هو المستهدف ...؟اثار العدد الهائل من اللآليات القلق لدى جهاد الذي استطاع ان يحدد سيرها وبعد ان توقفت بالقرب من منطقة المعاجين على بعد خمسين مترا من الجهة الغربية للمخيم ، اتصل جهاد بامجد وقال : اسمع! الجراد وقف عند المعاجين .... دير بالك وسلم على الجميع . ولا يهمك تصبح على خير . كان يامن ينصت للحديث الدائر غرق في التفكير ، معادلة الموت والمواجهة اكتملت في هذه الاثناء . وقف امجد على قدميه اخرج مسدسه اخذ يحصي حبات الرصاص هز راسه قليلا ادرك امجد ما يجول بخاطر يامن الذي كان يطيل النظر في وجهه ...

خير يارفيق .. في شو بتفكر ؟

انا شايف لو جبنا معنا ام الشدايد .

صمت امجد قليلا وهز راسه وقال : معك حق فش احسن من ام الشدايد

بضع امتار قليلة كانت تفصلهم عن البيت القديم سارا بخفة حتى لا يشعر بهم احد من المواطنين كان البيت مهجورا خاليا من الابواب والنوافذ ، دخل يامن وامجد الغرفة، اخذ يامن يتفقد بعض الاغراض التي كانوا يخفونها في كيس من البلاستيك كان مدفونا في ارض الغرفة مغطى بلوح من الخشب ، كان يحتوي على ثلاث قنابل وبعض حبات الرصاص ، جلسوا في الزاوية المقابلة للباب المطل على البستان كانت اوراق الشجر تتمايل برقة وحنان ويضفي ضوء القمر عليها بسحره ورائحة الياسمين تغلب رائحة المكان المليء برائحة الرطوبه المنبعثة من ارض الغرفة . في هذه الاثناء كان جنود الاحتلال والقوات الخاصة قد ضربت طوقا حول المكان وبعد لحظات شعر يامن وامجد بحركة خارج المنزل زحف يامن على يديه بجانب الحائط بخفة الى ان وصل بالقرب من الباب اخذ يحدق النظر عبر الاشجار وفجأة راى مجموعة من الجنود تتسلل ببطء وتتجمع في حلقة على بعد عشرة امتار من المنزل يتوسطها قائد المجموعة كانت

وجوههم مطلية ليخفوا فيها ملامح وجوههم القذرة ، رجع يامن الى امجد همس في اذنه ان ساعة البطولة اقتربت ... امسك يامن بالقنبلة بيده اليمنى قبلها ... حبيبتي هذه ساعة الحسم لاتخونيني ثم اعطى امجد ما تبقى من القنابل اخذ يزحف ثانية حتى وصل باب الغرفة كان قائد الوحدة يشير بيده صوب البناية المجاورة يحدد لهم الطوابق المستهدفه لقد بدا واضحا ان المعلومة التي وصلت لهم ان يامن وامجد قد لجآ الى احدى الشقق السكنية في البناية ،سحب يامن امان القنبلة ثم لوح بها عاليا وقذفها على الجنود التي سقطت بينهم وما ان عانقت الارض وقع دوي هائل غطى على شظاياها المتطايرة والتي مزقت اجسادهم بين قتيل وجريح ، علت هتافات الابطال ، انقض يامن وامجد عليهم يطلقون النار من مسدساتهم اخذوا يبحثون بين الاشلاء عن اشياء كان لا بد ان تكون معهم ، استولوا على عتادهم ، اجهزوا على ما تبقى منهم ، صعق الاحتلال لهول المفاجأة ، اخذ جنوده يتخبطون فالخسائر كبيرة ، بداؤا يطلقون النار في جميع الاتجاهات . والتعزيزات تتوالى ، من منطقة الطور ومعسكر حوارة ، طائرات الاباتشي اخذت تحلق فوق المكان ، اقترب ابو وطن من يامن همس في اذنه طالبا منه ان يتسلل عبر البساتين القريبة ،هناك وقت للفرار الرفاق بحاجة الك اهرب يا رفيق ...

- مش ممكن اهرب واخليك وحدك .
- ارجوك يامن انك تهرب انا بغطي عليك .
- اتحاولش انك تضغط علي هاي معركتنا يا رفيق . في هذه اللحظات كانت مكبرات الصوت تطلب منهم هدنة كي يستطيعوا اجلاء قتلاهم .
- بدك هدنة يا حقير ما اجبنكم ، صاح بهم ابو وطن .
- سلموا حالكم مش رايحين نعملكم اشي انا بوعدكم .
- اه يا قذر اعطيت ابو علي ونايف وجمال منصور هدنة ، مين اللي قتلهم يا كلاب .

القى ابو وطن باتجاه الصوت قنبلة اخرى ثم اتبعها بزخات من الرصاص ، دوى صوت الانفجار هز المكان اخذت صيحات الاهالي في المخيم تتعالى وبدا الناس يستيقظون على اصوات المدافع والرصاص

مدير الطائرات ، معركة حقيقية يخوضها الابطال وتتعالى الاصوات
تمتد الى جميع ارجاء المدينة ، بدا جنود الاحتلال يطلقون قنابل دخانية
كي يتمكنوا من اجلاء قتلاهم سيارات الاسعاف ذهابا وايابا الى معسكر
بير شرف الطائرات العمودية تهبط لتنقلهم الى المستشفيات الاسرائيلية ،
طائرات الاباتشي تطلق صواريخها الا ان المكان الذي كانوا يتواجدون
فيه و الضوء المنبعث من مصابيح الكهرباء كان يحول بينهم وبين
المناظير الليلية واشعة الليزر ... اخذت المدفعية المتمركزة بالقرب من
ملعب البلدية تطلق قذائفها على البناية دون تمييز ، المواطنون يزحفون
على بطونهم يبحثون عن مكان امن حمام مطبخ او زاوية غرفة ، تقيهم
من الموت المنبعث من شظايا القنابل والقذائف والصواريخ التي كانت
تخترق الجدران ، اخذت اعمدة الدخان ترتفع في السماء حاول رجال
الاطفاء الوصول الى هناك الا ان قوات الاحتلال قامت باطلاق النار
تجاههم ومنعوهم من الاقتراب من المنطقة .... يامن وامجد يبحثان خلال
الاشجار عن اهداف تتحرك كي يصطادونها كانا يحرصان على كل
رصاصة وكل قذيفة حصلا عليها ، تنبه الاحتلال للموقف كانت حركة
جنود مكشوفة تماما تحت الاضواء المنبعثة من اعمدة الكهرباء من
المنطقة الجنوبية للعمارة ، فقامت الطائرات بقصف محطة الكهرباء التي
تزود المنطقة بالتيار الكهربائي مما حول المنطقة الى ظلام ، اخذت
القذائف والصواريخ تنهال كالمطر ، والابطال يردون على مصادر
النيران بين حين واخر ، وكان الناس يميزون رصاصهم وتستمر المعركة
لم يتوقع الاحتلال هذه المقاومة العنيفة وهذه الخسائر الفادحة ، كان الناس
لا يصدقون ما يجري ، بدات الاتصالات والتساؤلات عن اولائك الابطال
وكم عددهم ، ظن البعض ان عدد كبير من الكتائب تخوض المعركة ،
وذهب بعضهم الى ابعد من ذلك ان احد جيوش الهزيمة قدمت لتحرير
المدينة... كان جهاد يراقب سير المعركة يتساءل كالاخرين ... لكن كل
ما يجري ينطبق على رؤية ابو وطن التي سمعها منه اكثر من مرة فكل
المواصفات والمقاييس من جنود وطائرات ودبابات واليات تدل على ان
ابو وطن في المعركة ، اتصل بعدد من الرفاق والاصدقاء لكن لاجدوى فلا

احد يعرف شيئا عنهم ، لكن الكل مذهول ومندهش من هذه الصلابة وهذه العزيمة ، وبينما هو على هذه الحال اطلقت الطائرات صواريخها كانت تشاهد وهي تنطلق كالشهب المتساقطة من الفضاء وعندما ترتطم بالبناية تحدث دويا هائلا يردد صداه ارجاء المدينة ، فقد اصابت الصواريخ معظم الاشجار المزروع امام البناية وتطايرت اغصانها مئات الامتار ، كان يهدف الاحتلال الى تفريغ الارض من الاشجار كي يستطيع تحديد تواجد يامن وامجد .

الساعة الرابعة فجرا اطلقت احدى الطائرات صاروخا اصاب احدى الاشجار التي كان امجد يتمترس خلفها ومن شدة الانفجار استشهد امجد بعد ان جعلت شظاياه يطير في الهواء ويسقط معانقا احدى اشجار اللوز بالقرب من السور ، اقترب يامن من امجد ، كان الدم يقطر من جميع انحاء جسده ، صاح به ، امجد ... امجد ... ابو وطن ... عرف يامن ان ابو وطن قد عانق الوطن ،وصعد الى السماء ليسكن الشمس ، رجع الى المكان الذي كان يتحصن فيه شاهد عددا من الجنود يتسللون بالقرب من الجدار الغربي للبستان قام باطلاق النار عليهم كانت الرصاصات بعدد الجنود ، ثم سمع قائد الوحدة يخاطبه ، سلموا حالكم وما انهى كلامه انهالت القذائف والصواريخ على المكان ودوي الانفجارات ، رد عليه يامن : يا حقير لا تقصف السكان ، اناهون لحالي ان كنت رجل انزل لعندي . وما ان انهى يامن كلامه حدد قائد الوحدة مكانه ، فامر المدفعية ضرب المنطقه التي انطلق منها الصوت اصابت احدى القذائف حجارة السور الذي كان يامن يلتجيء اليه فتطايرت شظاياه مئات الامتار ، اصيب يامن سقط على الارض ، اخذت الدماء تسيل من جر احه ، حاول الوقوف فلم يستطع سحب قميصا كان معلقا على حبل غسيل اخذ يضمد جراحه النازفه ، تفقد مخزن رصاص سلاحه لم يكن هناك سوى حبه واحده نفدت حبات الرصاص ، اسند ظهره للسور وكان منهكا اغمض عينيه قليلا تعالت صيحات المهووسين تطالبهم بالاستسلام ،فتح عينيه، تقدم الموت فجأة اقترب من يامن نظر يامن في عينيه ، تبسم ثم قطب جبينه ، حدق به صرخ بوجهه وقال : لاتقترب ايها الموت ، ماذا تحمل معك ؟ لاتكن واحدا

منهم ، اخجل ايها الموت فالمعركة لم تنته بعد ابتعد امهلني قليلا حتى ارى رفاقي يحملونني من جديد ،خجل الموت و انحنى ابتعد للحظات كانت السماء تعزف ترانيم النبياء تنهد يامن سحب نفسا عميقا ملا رئتيه بالهواء كانت رائحة الياسمين تطغى على رائحة الموت والبارود والدخان و الموت اخذ ينبش الارض بيديه يبحث عن حبات رصاص كي يحشو بها انفاسه من جديد لكن عندما تنفد حبات الرصاص تكون الشهادة اقصر الطرق الى الوطن الجريح ،اطبق عينيه شعر ان النهاية قد اقتربت ... اخذ يتذكر رفاقه الذين سبقوه وحلقوا في السماء ... ربحي ... فادي .. جبريل ... نايف ... الشيخ ابراهيم ... سامر ... تبسم انتظرتمونا طويلا قال يامن يعود الموت من جديد همس يامن في اذن الموت اخبرهم اننا قادمون ادرك جنود الاحتلال ان يامن قد اصيب ...و بدات مكبرات الصوت تطلب من السكان الخروج من البناية ...مهددين بنسفها مما حدى بالسكان شيوخا ونساء واطفال التدافع على درجات البناية ، في هذه الاثناء كان الدكتور خالد صلاح يحاول فتح باب منزله الا انه لم يستطع فقد عطلت احدى القذائف المزلاج حاول عدة مرات لكن دون فائدة ، طلب من ولده محمد ان يحضر جواز السفر الامريكي وقف امام النافذة يصرخ وبجانبه ولده رفع يده يلوح بجواز السفر (Ihave American Passport Icant open the door) وما ان انهى كلماته التي ظن فيها للحظات ان جواز السفر الامريكي قد يلغي الدم الفلسطيني لكن جنود الاحتلال الذين كانوا يتمركزون في البناية المقابلة امطروه وولده بالرصاص فصعد شهيدا وسقط جواز السفر لكن بقع الدم هي .. هي فلسطينية تناثرت هنا وهناك ، ومن الطابق الارضي خرجت ام حسن وابنائها وكانت في الخمسين من عمرها وعلامات الخوف والرعب بادية على وجوههم ، تنبهت اثناء خروجها لوجود شاب كان يستند الى السور المقابل لباب المنزل نادى عليها بصوت خافت

-يما انا مصاب اسعفيني نزفت دم كثير ... اطلبيلي الاسعاف . دنت منه نظرت اليه انهمرت الدموع من عينيها اخذت تنظر الى ارض الحديقة كانت تظن ان هناك جيشا من الرجال ..

- انت لوحدك كل هل المعركة منك ... . ابتسم يامن اشار بيده الى شجرة اللوز حيث كان ابو وطن يعانق الاغصان .
- ارجوك انا شاعر اني بموت اطلبيلي الاسعاف
- حاضر يما والله لاجيبلك كل سيارات الاسعاف
اسرعت ام حسن كان همها ان تطلب سيارة الاسعاف وما ان وصلت باب البناية شاهدت عددا كبيرا من الشباب والرجال ملقون على الارض يحيطهم عدد كبير من الجنود تقدمت منهم وقالت : في شاب بنزف عماله بموت اطلبوله الاسعاف . صرخ بوجهها احدهم وقال لها: شيكت(أخرسي) حاولت مرارا الى ان قام الجنود بالاعتداء عليها وهددوها باطلاق النار ، احضر جنود الاحتلال شابا في العشرين من عمره وامروه ان ينزل الى البستان ويخبرهم بما يشاهد هناك تردد الشاب قليلا هددوه بالموت نزل سائد عبر البوابة الى الدرج وكان خائفا وما ان وصل الى الحديقة حتى شاهد يامن اقترب منه كانت ملابسه مدرجة بالدماء ... ظن انه قد استشهد الا ان يامن طلب منه ان يهرب قائلا : ابعد عني لانهم رايحين يقتلوني . فاخبره بما طلب منه الجنود . عاد سائد مسرعا و الدموع تتساقط من عينيه ما اعظمك حتى في لحظات الموت تفكر في بالاخرين ! و ما ان وصل الجنود اخبرهم ان هناك شاب ينزف ، فطلب منه الجنود ثانية ان يعود ويحمل يامن ويضعه في الجهة المقابلة للبناية، فقال لهم : بقدرش احمله لحالي . احضر الجنود شابا اخر ثم طلبوا من ان يذهب مع مازن ، نزل الاثنان الى حيث كان يامن ادرك يامن ان النهاية قد اقتربت اخبروه ان الجنود اجبروهم على نقله الى المكان المقابل للبناية حتى يتاكدوا من هويته . قال يامن : مش عارفين هويتي لكلاب ، على كل حال في اللحظة التي تضعوني فيها اهربوا لانهم رايحين ايصفوني ... وقولوا للرفاق ابقوا على العهد . حملاه ووضعاه في الجهة المقابلة للحقد صرخ بهم الجنود ان يسرعوا ... صاح يامن بهم صرخة جيفارا المعهوده في وجه الموت (اطلق النار ايها الجبان فانك تقتل انسان) وتسابقت رصاصات الحقد لتقل الانسان .... لتقف العمة في ساحة المستشفى بعد انقضاء المعركة وانتشار الخبر لتقول:

كل من احببت اصبحوا في ذاكرة الشهادة وحاصرتهم عجلات القدر
ووقفت دماؤهم عند حدود الوطن. كانت لينا تقف الى جانبها وعلامات
الحزن بادية عليها الا أنها حضنت الوطن بدلا من وطن ... و حملت الفكرة
و مضت بها .